



كتاب شعري يصدر عن
رابطة العالم الإسلامي

الشريعة الإسلامية شريعة العدل والفضل

تأليف

الدكتور محمود محمد بابلي



كتاب شهري يصدر عن
رابطة العالم الإسلامي

الشريعة الإسلامية شريعة العدل والفضل

تأليف

د. محمود محمد بابلي

السنة الثانية عشرة

جمادى الآخرة ١٤١٤ هـ - العدد ١٣٨

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

**اللهم إني أستهديك لأرشد
أمرّي فزدني علماً ينفعني**

المقدمة

- شريعة العدل والفضل.
- شريعة العدل .
- شريعة الفضل .
- شريعة العدل والفضل في العبادات .

المقدمة :

١- شريعة العدل والفضل

تمتاز الشريعة الإسلامية فيما تتماربه بأنها تجمع بين العدل والفضل ، وهما أصلان أو قاعدتان أساسيتان من قواعد هذه الشريعة الغراء ، والفضل مقدم على العدل في هذه الشريعة ، وذلك من باب النذب لما هو أحمد عاقبة . .

والعدل : هو التوسط بين شيئين بأن لا يحيف جانب على آخر ، كالقسطا المستقيم .

والفضل : هو الاحسان ، أو الزيادة على الواجب ، أي تجاوز العدل إلى ما هو أفضل .

وللعدل آفاق واسعة في الحياة الإنسانية ، فهو ميزانها الحساس في كل جانب من جوانبها ، فإن اختل هذا الميزان ، أو جرى التلاعب في كفته ، فإن أثر ذلك سيظهر سريعاً في مجرى هذه الحياة .

وللفضل آثاره الطيبة في رأب الصدع ولحم الجراح وغسل الأسي المتبقي في النفوس على الرغم من تحقيق العدل بين الطرفين ، لأنه الدليل على التسامح والتسامي إلى مكارم الأخلاق .

وقد حرم الله سبحانه الظلم وأوجب العدل ونذب إلى الفضل

وكافأ عليه ، لأن إيجاب العدل فيه إقرار للمساواة بين الطرفين ، أوردُ
للمظالم والحقوق . . وليس فيه فضل من أحد على آخر ، لأنه ملزم
للطرفين ، فإن أخلاً به ، فعلى ولي الأمر واجب تحقيق العدالة بينهما ، فإن
حصل تفريط ، أو حال دون تطبيق العدالة حائل ، فإن الله سبحانه
وتعالى سيتولى ذلك عندما يضع الموازين القسط للناس .

والفضل لا يكون إلا بعد استواء الطرفين بالحقوق ، وتمكنهما من
ذلك ، فيتجاوز أحدهما هذا المستوى بالعفو أو بالإيثار أو التسامح بعد
العفو عن أساء ، أو قصرت به إمكاناته . .

فالشريعة الإسلامية أمرت بتطبيق العدل وحذرت من عواقب
التفريط فيه ، وندبت إلى الأخذ بالأفضل ، وحضت عليه وأثبتت من
يحققه في تعامله ثواباً كبيراً .

وإننا نرى في هذه الشريعة أمثلة كثيرة على تطبيق العدل والأخذ به
في مختلف ميادين التعامل ، حتى مع الذات ، أو مع الأقربين . . كما نرى
أمثلة أخرى ندبت إلى الإحسان بعد التمكن من تحقيق العدل ، وهو
الفضل ، وشعارهم في ذلك : ادفع بالتي هي أحسن .

٢- شريعة العدل

إن العدالة من القواعد الحكيمة التي فرضها الإسلام على أتباعه وحرص على أن يتخلقوا بها ، وليس ذلك في الحكم فحسب ، وإنما في علاقة الفرد مع نفسه ، وعلاقته مع الآخرين . . حاكماً كان أم محكوماً ، لأن العدل أساس الملك ، وهو الذي تقوم عليه السماوات والأرض . .

وقد ورد الأمر من الله سبحانه وتعالى في إقامة العدل بشكل مطلق ، كما ورد الأمر منه سبحانه وخصوصاً بولاية الأمور في أن يعدلوا بين الناس ، كما ورد الأمر للمؤمنين بأن يعدلوا في أعمالهم وفي أقوالهم وفي جميع تصرفاتهم . .

وهذه الأوامر . نجدها في عديد من الآيات القرآنية . .

- فتلك التي تنص على إقامة العدل بشكل مطلق وردت في قوله تعالى في سورة النحل : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الآية ٩٠) .

وقوله تعالى في سورة الحديد : ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ

بِالْقِسْطِ﴾ (الآية ٢٥) .

- وتلك التي تنص على إقامة العدل في الحكم وردت في قوله تعالى في سورة الشورى : ﴿وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ

بينكم ﴿ (الآية ١٥) .

والأمر للرسول الكريم بالعدل لم يرد بصفته نبياً ومبلغاً عن ربه ، وإنما ورد الأمر بصفته وليّ أمر المسلمين ، فهو أمر لكل من يلي أمور المسلمين بأية صفة كانت له .

وفي قوله تعالى في سورة المائدة :

﴿ وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين ﴾
(الآية ٤٢)

وفي قوله تعالى في سورة النساء :

﴿ وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ﴾ (الآية ٥٨) .

- وتلك التي تنص على إقامة العدل مع النفس والوالدين والأقربين وردت في قوله تعالى في سورة النساء :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴾ (الآية ١٣٥) .

وفي قوله تعالى في سورة المائدة :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ (الآية ٨) .

- وتلك التي تنص على إقامة العدل في القول وردت في قوله تعالى في سورة الأنعام : ﴿ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا

ذلك وصاكم به لعلكم تذكرون ﴿ (الآية ١٥٢) .

- وتلك التي تنص على إقامة العدل في التعامل وردت في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وليكتب بينكم كاتب بالعدل . . إلى قوله تعالى : ولیملل ولیه بالعدل﴾ (الآية ٢٨٢) .

وفي قوله تعالى في سورة الانعام: ﴿وأوفوا الكيل والميزان بالقسط﴾ (الآية ١٥٢) .

- وتلك التي تنص على إقامة العدل بين طائفتين من المؤمنين يقتتلون وردت في قوله تعالى في سورة الحجرات: ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اختلفتا فاصلحا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلتا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله . فإن فاءت فأصلحا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾ (الآية ٩) .

- وكذلك العدل بين الزوجات فيما إذا كنَّ أكثر من واحدة ورد في قوله تعالى في سورة النساء:

﴿فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة﴾ (الآية ٣) .

وغير ذلك من الآيات التي تأمر بإقامة العدل في القول والعمل والتصرف . . وهناك أحاديث عدة تحض على العدل وتحذّر من عواقب الجور ولو كان ذلك بالهبات لأولادنا . .

ولابد من التذكير بالحديث الذي رواه الإمام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، من أن أول السبعة الذين يظلمهم الله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل . . وهذه الأولوية تعني مايقابلها من التأخر والعقوبة فيما إذا جارت الأئمة على رعيتهما ولم تحش الله فيهم . .

وقد روى الامام أحمد في مسنده عن معقل بن يسار رضي الله عنه ان رسول الله ﷺ قال :

«ليس من ولي أمة ، قلت أو كثرت ، لا يعدل فيها إلا كبه الله تبارك وتعالى على وجهه في النار» .

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العدل والتحذير من التفريط فيه :

«ويل لديان من في الأرض من ديان من في السماء يوم يلقونه ، إلا من : أمر بالعدل ، وقضى بالحق ، ولم يقض على هوى وقرابة ، ولا على رغب ورهب ، وجعل كتاب الله مرآة بين عينيه»^(١)
ويقول الامام ابن تيمية :^(٢)

«ولهذا قيل : إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا يقيم الظالمة وإن كانت مسلمة . ويقال : الدنيا تدوم مع العدل والكفر ، ولا تدوم مع الظلم والإسلام . وذلك أن العدل نظام كل شيء فإذا أقيم أمر الدنيا بعدل قامت ، وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق ، ومتى لم تقم بعدل لم تقم ، وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزي به في الآخرة» .

ويقول أيضاً :^(٣)

«فلا بد من شرع يتضمن الحكم بالعدل ، ولا بد مع ذلك من ندب الناس إلى العفو والأخذ بالفضل . . فيإيجاب العدل يقترن به الترهيب

(١) من كتاب (اعلام الموقعين) لابن القيم ج ١ ص ٣٧ .

(٢) من كتاب (الحسبة) لابن تيمية ص ٩٤ تحقيق عبدالعزيز رباح .

(٣) من كتاب (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) لابن تيمية ج ٣ ص ٢٥٤ و ٢٥٦ .

والتخويف في تركه ، واستحباب الفضل يقترن به الترغيب والتشويق إلى فعله ، فذاك فيه رهبة مع ما فيه من الرغبة ، وهذا فيه رغبة بلا رهبة» .

ومن الظلم الذي ينافي العدل ، ولا تصح فيه المسامحة لأنه يدخل في باب أكل أموال الناس بالباطل ما أمر به رب العالمين من وجوب إيفاء الكيل والميزان بالقسط ، والتحذير من بخس الناس أشياءهم . . ونشر الفساد في الأرض . .

وإن أظلم الظلم الإشراك بالله سبحانه ، وهذا ما حذر لقمان ابنه منه في وعظه له إذ قال : ﴿يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ (سورة لقمان الآية ١٣)

وما جاء في قوله تعالى في سورة الانعام :

﴿والذين لا يؤمنون بالآخرة وهم بربهم يعدلون﴾ (الآية ١٥٠) أي

يشركون به .

٣- شريعة الفضل

تفضل الله سبحانه على عباده، والله ذو الفضل العظيم، فوجههم إلى ما فيه خيرهم وصلاحهم، وحذرهم من مخالفة أمره، لأن المخالفة عن أمره فيه هلاكهم المحقق. . وأثاب على فعل الخير أضعافاً مضاعفة، وحدد جزاء السيئة بمثلها، حتى إنه سبحانه زيادة في فضله وإحسانه، جعل من يهم بحسنة ولا يفعلها تكتب له حسنة، وإذا فعلها تتضاعف إلى عشر حسنات، إلى سبعائة ضعف، وإلى أضعاف كثيرة^(١)، وأنه إذا هم بسيئة ولم يفعلها كتبت له حسنة. . وزاد سبحانه في فضله على من ينفق في سبيله، بأن ضاعف الثواب أيضاً كما ضاعفه في الحسنات^(٢).

ومن فضل الله سبحانه على عباده أن من عصاه وأفرط في عصيانه، إذا تاب وارتجع يغفر الله له ذنوبه، على ما كان منه، ولو كانت مثل زبد البحر.

(١) يقول سبحانه في تنزيله العزيز: ﴿من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون﴾ (الأنعام ١٦٠). ويقول عليه الصلاة والسلام فيما يرويه عن ربه: إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعائة ضعف إلى أضعاف كثيرة. ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله له عنده حسنة كاملة، فإن هو هم بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة» (رواه الإمام البخاري).

(٢) يقول الله تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم﴾ آية ٢٦١.

ولنقرأ قوله تعالى في سورة الزمر:

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذَّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الآية ٥٣).

غير أن غفران الذنوب تشترط فيه الإنابة إلى الله والاستسلام له ،
واتباع ما أنزل الله على رسوله . . وأن الأعذار التي يتلمسها المسيء
لالتجديه نفعاً إذا ما بقي واستمر على ما كان عليه دون توبة صادقة وإنابة
مخلصة . .

وهذا ما أكدّه رب العالمين بقوله بعد هذه الآية السابقة :

﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلَمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ
لَا تُنصِرُونَ . وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ
الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ . أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي
جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ . أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ
الْمُتَّقِينَ . أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾
(الآيات ٥٤ / ٥٧).

وأنه سبحانه ، وله الأمر ، يغفر لمن يشاء ما يشاء ، ولكنه حذّر من
الشرك به وانه لا يغفره أبداً ، وهذا ما نطقت به الآية التالية من سورة
النساء :

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ
بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيماً﴾ (الآية ٤٨).

وإنني أقدم فيما يلي عدداً من الآيات التي تجمع بين العدل
والفضل ، أي أنها تشترط العدل ثم تندب إلى الفضل وذلك في مثل قوله

تعالى في سورة البقرة: (١).

«وان كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة» فهذا عدل واجب ، من خرج عنه استحق العقوبة في الدنيا والآخرة .

ثم قال تعالى : ﴿وان تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ (الآية ٢٨٠).

فهذا فضل مستحب مندوب إليه ، من فعله أثابه الله ورفع درجته ، ومن تركه لم يعاقبه . وفي قوله تعالى : ﴿ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله﴾ فهذا عدل . ثم قال تعالى : ﴿إلا أن يصدّقوا﴾ (النساء ٩٢) فهذا فضل .

وفي قوله تعالى : ﴿والجروح قصاص﴾ فهذا عدل ، ثم قال : ﴿فمن تصدّق به فهو كفارة له﴾ فهذا فضل . (سورة المائدة الآية ٤٥) .

وفي قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم﴾ فهذا عدل ، ثم قال : ﴿إلا أن يعفون أو يعفو الذي بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى﴾ فهذا فضل . (الآية ٢٣٧) وفي هذه الآية يؤكد سبحانه على الفضل فيقول : ﴿ولا تنسوا الفضل بينكم﴾ .

وفي قوله تعالى في سورة النحل : ﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ فهذا عدل ، ثم قال : ﴿ولئن صبرتم لهو خير للصابرين﴾ فهذا فضل . .

وفي قوله تعالى في سورة الشورى : ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ فهذا عدل ، ثم قال : ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ (الآية ٤٠) فهذا فضل .

(١) انظر كتاب (الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح) للإمام ابن تيمية الجزء الثالث ص ٢٣٠ ومابعدھا للتعرف على وجهة نظر هذا الامام في كمال الشريعة وجمعها بين العدل والفضل .

وهو سبحانه دائماً يحرم الظلم ويوجب العدل ويندب إلى الفضل ،
كما في آخر سورة البقرة لما ذكر حكم الأموال .

والناس فيها إما محسن ، وإما عادل ، وإما ظالم .

فالمحسن المتصدق ، والعادل المعاض بالبيع والهدية فتقديمها
بدءاً بفضل ورد مثلها عدل والزيادة عليها فضل والظالم كالمرابي ، فبدأ
بالاحسان والصدقة ترغيباً وحضاً على فعل الخيرات فقال تبارك وتعالى :

﴿ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع
سنابل في كل سنبلة مثله حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾
(الآية ٢٦١ من سورة البقرة) .

ثم بين سبحانه حلّ المعاضات فقال ﴿ وأحل الله البيع وحرم
الربا ﴾ (الآية ٢٧٥) وقد وردت هذه الآية ضمن قوله تعالى : ﴿ الذين
يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ذلك
بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا وأحل الله البيع وحرم الربا فمن جاءه
موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله ومن عاد فأولئك
أصحاب النار هم فيها خالدون . يمحى الله الربا ويربي الصدقات والله
لا يحب كل كفار أثيم ﴾ (الآيتان ٢٧٥ / ٢٧٦ من سورة البقرة) .

وهكذا قرن بين العدل في المبيعات والظلم في الربويات وشدد على
الثانية تشديداً لا نظير له في غيرها من المحرمات فقال سبحانه : ﴿ فإن لم
تفعلوا فاذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم
لا تظلمون ولا تظلمون ﴾ (الآية ٢٧٩ سورة البقرة) .

فهذه الأمثلة وكثير أمثالها تعطى المتتبع لها والمتبصر في مدلولها اليقين
من أن هذه الشريعة هي شريعة العدل والفضل على السواء وأنه لا مثيل
لها في الانتصاف وفي المساحة .

٤- شريعة العدل والفضل في العبادات

إن شريعة العدل والفضل في الإسلام لا تقتصر على المعاملات المادية تعادلاً وتسامحاً، أو على ضبط النفس وكظم الغيظ والعفو عن الناس . . في حال الاعتداء أو التجاوز على حريات الآخرين . . وإنما نجدها بارزة أيضاً في العبادات .

هذه العبادات التي قد يتصورها بعضهم بأنها علاقة بين العبد وربّه فقط ، ولا أثر لها في تربية النفس والارتفاع بها إلى مرتبة الفضل ، بتحري ما يرضي الله .

إن هذه المرتبة التي يدعو إليها الإسلام هي في صالح الفرد كما هي في صالح المجتمع ، لأنها تحول دون وقوع الإنسان المسلم - الحريص على مرضاة ربه - في مخالفة أو معصية ، وبهذا يسلم هو من المؤاخذه ، كما يسلم الآخرون من لسانه ويده ، ويرتفع به ذلك إلى مرتبة الإحسان فيعم فضله الآخرين ، لأنه على يقين من أن تصرفاته جميعها بمراى من الله سبحانه الذي لا تخفى عليه خافية . . فيزداد تقرباً إلى الله بزيادة أفعال الخير والنوافل بعد أدائه للفرائض ، لتكون له ذخراً يوم لا ينفع الإنسان إلا عمله الصالح .

وإنني سأقدم الشواهد على ذلك بما يلي :

١- الوضوء:

إن الوضوء هو مفتاح الصلاة، ولا يقبل الله صلاة بغير طهور، فهو من مستلزمات الصلاة، أي أن أداء هذه العبادة لا يتحقق إلا بسبق الوضوء، فهو من هذه الناحية عدل لأفضل فيه للمسلم مادامت صلاته مرتبطة به.

غير أن المحافظة على الوضوء ما بين الصلوات يدخل في باب الفضل لقوله ﷺ:

«ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن» (رواه مالك وأحمد).

فمن العدل أن تتوضأ لكل صلاة، أو تكون متوضئاً عند أداء الصلاة، أما المحافظة على الوضوء خلال اليوم كله وقيل النوم، فإنه من أبواب الفضل، لأن المتوضيئ يكون على استعداد لأداء ما يفاجئه من صلوات، كالصلاة على الميت مثلاً أو استلام مصحف أو غير ذلك من الأمور التي يستحسن أن يكون الإنسان فيها على طهارة، وكذلك إذا مامات الإنسان وهو متوضيئ فإنه يموت على طهارة، فيكون ذلك أفضل له.

وبذلك تكون المحافظة على الوضوء هي من باب الأخذ بالأفضل على مختلف الحالات، وهي تربية للمسلم في أن يكون مستعداً لأداء الطاعات وتجنب المزالق الشيطانية.

فالوضوء سلاح للمؤمن مادام محافظاً عليه.

٢- الصلاة:

أما الصلاة فإنها فريضة يجب على المسلم أداؤها في أوقاتها، وقد وردت في القرآن الكريم آيات كثيرة تشير إلى ذلك منها قوله تعالى :
﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (سورة النساء الآية ١٠٣).

وفي قوله تعالى : ﴿وَأَقِمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ (سورة البقرة ٤٣).
وفي قوله سبحانه : ﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (سورة الأحزاب ٣٣).

وقد سئل النبي ﷺ أي العمل أحب إلى الله؟
قال : الصلاة على وقتها . (رواه البخاري)

وأن أداء هذه الفريضة هو من العدل الذي يؤخذ عليه فاعله إن قصر فيه ، أي أن الإخلال بالصلاة المفروضة يوجب العقوبة . فالذي لا يتم ركوعها ولا سجودها تكون صلاته مردودة عليه .

أما صلاة النافلة (صلاة التطوع) فهي من باب الفضل الذي يعود على فاعلها بالخير المحقق . ومن ذلك أنها تجبر الصلاة المفروضة أو تكون له ذخراً يوم القيامة ، والتقرب بها إلى الله سبحانه يزيد في حب الله له .

٣- باقي الفرائض: (١)

إن النوافل (أي الزيادة في التقرب إلى الله سبحانه) لا تقتصر على الصلاة، وإنما هي واردة في جميع الفرائض - زكاة وصياماً وحجاً -، وإن التقرب بها إلى الله سبحانه لا ينبغي بها فاعلها إلا وجه ربه، يرفع شأن العبد عند الله، ويشمله ماورد في الحديث القدسي الذي رواه الامام البخاري عن أبي هريرة ان رسول الله ﷺ قال :

«إن الله قال : من عادى لي ولياً أذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، وإن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته» .

إن هذا الحديث لا يقتصر على نوافل الصلاة، وإنما يشمل كل تقرب إلى الله غير مفروض على المسلم من صلاة أو صدقة أو صيام أو حج . . .

وقد أورد الحافظ ابن حجر في شرحه لهذا الحديث الأقوال التالية: (٢)

قال الطوفي :

«الأمربالفرائض جازم ويقع بتركها المعاقبة . بخلاف النفل في

(١) أفردنا بحثاً للزكاة التي هي من أبواب العدل، كما أفردنا بحثاً للتطوع بالصدقات ومنها (الصدقة الجارية) التي هي من أبواب الفضل .

(٢) من كتاب (فيض الباري شرح صحيح البخاري) ج ١١ ص ٣٤٣ .

الأميرين ، وإن اشترك مع الفرائض في تحصيل الثواب ، فكانت الفرائض أكمل . فلهذا كانت أحب إلى الله تعالى وأشد تقريباً ، وأيضاً فالفرض كالأصل والأس ، والنفل كالفرع والبناء ، وفي الاتيان بالفرائض على الوجه المأمور به امتثال الأمر واحترام الأمر وتعظيمه بالانقياد إليه وإظهار عظمة الربوبية وذل العبودية ، فكان التقرب بذلك أعظم العمل ، والذي يؤدي الفرض قد يفعله خوفاً من العقوبة ، ومؤدى النفل لا يفعله إلا ايثاراً للخدمة بالمحبة التي هي غاية مطلوب من يتقرب بخدمته .

وقال الفاكهاني :

«معنى الحديث أنه إذا أدى الفرائض ودام على إتيان النوافل من صلاة وصيام وغيرهما أفضى به ذلك إلى محبة الله تعالى» .

وقال ابن هبيرة :

«إن النافلة لا تقدم على الفريضة ، لأن النافلة إنما سميت نافلة لأنها تأتي زائدة على الفريضة فما لم تؤد الفريضة لا تحصل النافلة ، ومن أدى الفرض ثم زاد عليه النفل وأدام ذلك تحققت منه إرادة التقرب» .

الباب الأول:

الشريعة العدل

ويتضمن البحوث التالية:

- | | |
|----------------------|-------------------------------------------------------|
| البحث الأول : | الشريعة في الإسلام. |
| البحث الثاني: | محاسن الشريعة. |
| البحث الثالث: | العدل في الشريعة. |
| البحث الرابع: | العدالة في توزيع الميراث. |
| البحث الخامس: | العدل والتوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع. |
| البحث السادس: | عدالة فريضة الزكاة. |

الشريعة في الإسلام

١- الشريعة لغة:

مشركة الماء وهو مورد الشاربة^(١)، وهي ما شرع الله لعباده من الدين .

فالشريعة : ما سنّ الله من الدين وأمر به ، كالصوم والصلاة والحج والزكاة . . وسائر أعمال البر، وقد شرع لهم يشرع شرعاً : أي سنّ .
قال الله تبارك وتعالى :

﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها﴾ (سورة الجاثية ١٨)
أي جعلناك على دين وملة ومنهاج .

والشريعة : الشريعة . ومنه قوله تعالى :

﴿لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً﴾ (سورة المائدة الآية ٤٨)
أي سبيلاً وسنة وطريقة واضحة .

وقوله تعالى :

﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك . . ﴾

(١) وإنما سميت بذلك لوضوحها وظهورها، ولأخذ الناس منها حظوظهم تشبيهاً لها بمورد الناس للاستقاء .

(سورة الشورى الآية ١٣).

أي سنّ لكم من الدين ماسنّه قبل ذلك للرسل عليهم السلام،
لأن الدين عند الله دين واحد وهو الإسلام . لقوله تبارك وتعالى :
﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ سورة آل عمران الآية ١٩ .
وهو دين التوحيد، أي عبادة الله وحده لا شريك له .
وفي الحديث الشريف :

«نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد»

أولاد العلات : الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد، أراد أن إيمانهم
واحد وشرائعهم مختلفة . (من كتاب في غريب الحديث والأثر لابن
الأثير) .

٢- الشريعة اصطلاحاً:

يقصد بالشريعة اصطلاحاً : سنن الأحكام المنظمة لأمر من الأمور
لكي يسير الناس على هداها التزاماً واجتناباً .

والمصلحة من الشريعة هي انتظام أمور الناس وضبط تصرفاتهم
القولية والعملية . فلا بد إذن من وضع أحكام يخضع لها الجميع وتكون
لها قوة النفاذ عليهم .

ومن هنا أوجب الشرع وجود من يتولى أمر الأمة ويرعى شؤونها
استناداً إلى هذه الأحكام التي تشمل كفراد الأمة ، وتخصه
بالسلطة ونفاذ الأمر ضمن حدود هذه الأحكام .

٣- من هو المشرع :

ينفرد الإسلام عن غيره في أن المشرع فيه هو الله سبحانه وتعالى ، وان أحكامه أجهلها في كتابه الكريم الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ليكون للعالمين نذيراً ، وأمر الله سبحانه نبيه المصطفى بأن يبين للناس ما نزل إليهم ، وجعل طاعة رسوله في ذلك طاعة له ، وخصه بطاعة مستقلة عن طاعته سبحانه ، وداخلة في شمولها ، فهما طاعتان لمسمى واحد هي طاعة الله سبحانه وتعالى لقوله تبارك وتعالى :

﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ (سورة النساء الآية ٨٠) .

ولقوله سبحانه أيضاً :

﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ (سورة الفرقان الآية ٥٤) .

وقد ورد التحذير من مخالفة الرسول في قول الله سبحانه :

﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾ (سورة النور الآية ٦٣) .

فطاعة الرسول ﷺ طاعة مستقلة أيضاً وهي واجبة على المسلمين ، كطاعة الله سبحانه لاقتنائها في أكثر من آية بطاعة الله .

فهو ﷺ يحل ويحرم بتحليل الله وتحريمه ، لقوله جل وعلا :

﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزّروه ونصره واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾ (سورة الأعراف الآية ١٥٧).

وإن الذين لا يحرمون ما حرم الله ورسوله يجب على المسلمين قتالهم حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، لقوله سبحانه في سورة التوبة :
﴿قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون﴾ (الآية ٢٩).

وكذلك يجب على المسلمين الأخذ بما يأمر به الرسول والانتهاز عما نهى عنه لقوله تعالى في سورة الحشر:

﴿وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ (الآية ٧) وهذه الآية تفيد معنى الشمول في الأمر والنهي وإن كان سبب نزولها لقضية خاصة .

فالمشرّع في الإسلام هو الله سبحانه مالك الأمر كله ورسوله المصطفى بتفويض الله له .

٤- هل لغير الله وغير رسوله حق التشريع:

إن الله سبحانه وتعالى هو المشرع الأول الذي أنزل على محمد ﷺ الكتاب متضمناً أحكام الدين ، وأمره بتبليغه للناس ، وتبيان الأحكام لهم .

فللرسول صلوات الله وسلامه عليه - صفة التبليغ عن ربه ،
وسلطة تبيان أحكام القرآن وتفصيلها ، فهو بهذه الصفة لا يشاركه فيها
أحد مطلقاً لأنه الرسول المصطفى من الله لتبليغ رسالته للناس كافة .

غير أن للرسول - صلوات الله عليه - صفة أخرى غير صفة النبوة ،
إنه وليّ أمر المسلمين طوال حياته بعد البعثة ، فهو بهذه الصفة كان يضع
للمسلمين أحكاماً ليست بمرتبة الوحي القرآني ، وإنما هي أوامرونواه
ترتبط بها مصالح المسلمين ، وهي واجبة النفاذ عليهم ، لأنها تصدر عن
ولي أمرٍ تحب طاعته على المسلمين بهذه الصفة ، لقوله تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾
(سورة النساء الآية ٥٩) .

فللرسول ﷺ هنا طاعة مستقلة عن طاعة الله ، وإن طاعة أولي
الأمر داخلية في شمول طاعة الله وطاعة رسوله .

وإذا كان الرسول ﷺ وليّ أمر المسلمين فله بهذه الصفة طاعة
أخرى تدخل في شمول طاعة الله سبحانه ، ولهذا صدر الأمر من الله
تعالى إليه - وهو بصفة وليّ أمر المسلمين - بأن يشاورهم بالأمر ، ولولم
تكن له هذه الصفة لما صدر له مثل هذا الأمر . لأن طاعته بالتبليغ عن
ربه واجبة لا ريب فيها ولا تحتاج إلى مشاورة المسلمين في إقرارها أو تغيير
شيء منها .

والأمثلة على وجوب امتثال أوامر الرسول ﷺ غير القرآنية والتي
تدخل ضمن شمول صفته كوليّ أمر كثيرة ، ونقتصر على إيراد بعض
منها .

(أ) النهي عن الدخول إلى أرض ظهر فيها الطاعون والخروج منها^(١).

وهذا أمر تنظيمي وقائي يستفاد منه حصر المرض في مكانه والحيلولة دون انتشاره وهو من باب السياسة الشرعية في الأمور الصحية.

(ب) النهي عن ادّخار لحوم الأضاحي فوق ثلاثة أيام ثم أمره في السنة التالية بالادّخار بعد زوال العلة المانعة^(٢).

وهذا أمر إداري يراد منه التوسعة على المحتاجين الوافدين إلى المدينة قبيل عيد الأضحى الذي صدر فيه هذا الأمر، وهو من باب السياسة الشرعية في الأمور التموينية.

(ج) قبول افتداء الأسرى أنفسهم، ممن ليس لديه مال، بتعليم عشرة من أبناء المسلمين^(٣) الكتابة.

وهذا أمر إداري أيضاً فيه إرشاد إلى ضرورة نحو الأمية بين أبناء المسلمين، وهو من قبيل السياسة الشرعية في الأمور التعليمية.

(١) عن أسامة بن زيد قال: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها» رواه الإمام البخاري وأخرج أيضاً عن عبد الرحمن بن عوف مثله.

(٢) عن سلمة بن الأكوع قال: قال النبي ﷺ: من ضحى منكم فلا يصبحن بعد ثلاثة وفي بيته منه شيء». فلما كان العام المقبل قالوا: يا رسول الله نفعل كما فعلنا العام الماضي؟ قال: كلوا وأطعموا وادّخروا، فإن ذلك العام كان بالناس جهد فأردت أن تعينوا فيها» رواه الإمام البخاري. وفي رواية للإمام مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: دفّت أهل أبيات من أهل البادية حصرة الأضحي، زمن رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ: ادّخروا ثلاثاً ثم تصدّقوا بها بقي» قلما كان بعد ذلك قالوا، يا رسول الله إن الناس يتخذون الأسقية من ضحاياهم ويحملون فيها الودك، فقال رسول الله ﷺ: وما ذاك؟ قالوا: نهيت أن تؤكل لحوم الأضاحي بعد ثلاث. فقال: إنما نهيتكم من أجل الدافقة التي دفّت فكلوا وادّخروا وتصدّقوا».

(٣) كان ناس من الأسرى يوم بدر لم يكن لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة» رواه الإمام أحمد.

(د) أن يكون عرض الطريق في حال التنازع عليه لا أقل من سبعة أذرع^(١). وإذا اقتضت المصلحة الزيادة في عرضه كان لهم ذلك. وهذا أمر إداري يدخل في شمول تخطيط المدن. . وإلى غير ذلك من الأمور المماثلة التي تصدر عن وليّ الأمر بما تقتضيه مصلحة الأمة. وهذه الأوامر لا تخرج عن كونها تشريعاً ملزماً لمن صدرت لمصلحته، واجبة النفاذ، ما لم تقض المصلحة إلغائها أو استبدالها بغيرها.

٥- الفرق بين الرسول من حيث كونه وليّ أمر وبين من خلفه في هذه الصفة:

إن ما يصدر عن الرسول ﷺ بصفته وليّ أمر الأمة مسدد من الله سبحانه، لأنه سبحانه ما كان ليقرّ أمراً يصدر عن الرسول يتعارض مع الحكمة الإلهية.

ولهذا نجد في القرآن العظيم آيات كريمة تتضمن عتاباً له ﷺ في أمور صدرت عنه في معرض الاجتهاد، ولادخل فيها للوحي. مثل قضية الأسرى قبل الإثخان في الأرض^(٢). وقضية الأعمى الذي لم يستجب له الرسول ﷺ وبقي منصرفاً عنه في محاولة كسب بعض

(١) عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «قضى النبي ﷺ إذا تشاجروا في الطريق المبتاء (التي بطرقها الناس) بسبعة أذرع». رواه الامام البخاري.

(٢) لقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يَتُخَذَ فِي الْأَرْضِ تَرْدُونَ عَرْضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يَرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة الأنفال الآيتان ٦٧/٦٨).

رجالاً قريش للإسلام^(١).

فالرسول ﷺ بهذه الصفة مرجعه الله سبحانه الذي لا يقره على خطأ وبخاصة في الأمور التي لها آثارها البعيدة في ترسيخ العقيدة وانتشارها بين الناس .

أما خلفاؤه من بعده، فإنهم يختلفون عنه ﷺ في أنهم عند وقوع التنازع على أمر بينهم وبين رعاياهم، يجب عليهم أن يرجعوا إلى كتاب الله وإلى سنة نبيه ليستمدوا طاعتهم الخاصة بهم من طاعة الله وطاعة رسوله . لأن ولاية الأمر لم ترد لهم طاعة خاصة مستقلة بهم، وإنما طاعتهم تأتي تبعاً لطاعة الله وطاعة رسوله، فهم كباقي أفراد الشعب مقيدون بالتزام أوامر الله المبينة في كتابه وأوامر رسوله المفصلة في سنته .
لقلوه سبحانه في سورة النساء :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (الآية ٥٩) .

فهذه الآية أوجبت، عند وقوع التنازع على أمر أن نرده إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله .

فالقول الفصل في ذلك أن خلفاء الرسول ﷺ في ولاية الأمر يرجعون إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله . فلا بد لهم من معرفة الأحكام

(١) لقلوه تعالى : ﴿عِيسَى وَتُولَى . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى . وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزْكَى . أَوْ يَذْكُرُ فِتْنَةً هُوَ الذَّكْرَى . أَمَّا مَنْ اسْتَغْنَى . فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى . وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزْكَى وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى . وَهُوَ يَخْشَى . فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾ سورة عبس الآيات ١ / ١٠ .
(٢) انظر كتاب (الكامل في التاريخ) ج ٢ ص ٢٢٥ .

بالرجوع إلى مصادرها إما عن طريقهم مباشرة، فيما إذا كانوا أهلاً لذلك، أو عن طريق العلماء المشهود لهم بالكفاءة والتقوى.

٦- صفة ما يصدر عن

ولاية الأمر لرعاياهم:

إن طاعة ولي الأمر في الإسلام واجبة مادامت تدخل في شمول طاعة الله وطاعة رسوله ولا تخرج عنهما.

وهذا ما عبر عنه أول خليفة لرسول الله ﷺ في أول خطبة له:

«أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم».

وهذا لسان حال باقي الخلفاء الراشدين المهديين رضوان الله عليهم أجمعين.

وان لنا في كثير من تصرفات هؤلاء الخلفاء ما يساعدها على القول من أن لولي الأمر أن يصدر من الأوامر ما تقتضيه مصلحة الأمة ويصبح تشريعاً ملزماً لها، ما لم ترد مصلحة راجحة تعدل في بعضها أو توقفه أو تلغيه.

ومن هذه الأوامر ما يعتبر نفاذه مستمراً باستمرار دوام الإسلام والأمثلة على ذلك:

١ - أمر أبي بكر رضي الله عنه بجمع القرآن في مصحف واحد.

٢- وأمر عمر رضي الله عنه في تدوين الدواوين على اختلاف مسمياتها .

٣- وأمر عثمان بجمع الناس على مصحف واحد .

وهذه الأمور وأمثالها لها صفة التشريع الملزم للرعية ، ويوجب معاقبة من يخرج عليه أو يخالفه .

وهكذا الشأن في جميع ما يصدر عن ولاية الأمر من أوامر تأخذ صفة الشمول والعموم في تنظيم بعض مصالح الناس التي لا تتحقق إلا بها ، وذلك مثل وضع نظام السير (المرور) في عصرنا الحاضر، فإن الامتثال لهذا النظام يحقق مصلحة لا شك فيها ، وإن كل مخالفة له تؤدي إلى مفسدة قد لا تقتصر على فاعلها وإنما تتعدى إلى الآخرين .

وهكذا كل نظام يصدر عن ولي الأمر تقتضيه مصلحة الجماعة هو من الأمور التنظيمية التي يحق لولي الأمر النظر فيها وإصدار ما يراه من توجيهات أو أوامر ليلتزم بها الناس في هذا الخصوص .

٧- وجوب سهر الأمة على

رعاية مصالحها :

إن القاعدة الكلية تنص على أن الحكم على الرعية منوط بالمصلحة ، وحيثما توجد المصلحة فثم شرع الله ودينه ، وإن مصالح العباد هي الغاية المقصودة من تشريع الأحكام .

غير أن الذين يتولون الحكم هم من البشر ، وقد يتأهب ما يتأهب

البشر من ضعف إنساني ، أو جنوح عن الجادة لسبب من الأسباب .
ولهذا وضع الإسلام لأفراده قواعد وضوابط تقيهم هذه التقلبات
ماعملا بها ، وهي مراقبة تصرفات أولياء أمورهم ووزنها بميزان الشرع .
فإذا ما استقاموا عليه استمروا في تأييدهم والعون لهم أو نبهوهم إلى
ما يجدون في هذه التصرفات من مجانية صريحة لقواعد الشرع الحكيم .
وهذا لا يصح صدوره إلا عن علماء متمكنين من أمور الدين ، ولهم
غيرتهم الصادقة وسلوكهم المستقيم ، ولم يجرب عليهم من قبل ما يسيء
إلى سمعتهم ومكانتهم .

وهؤلاء هم العلماء القادرون على فهم دقائق الأمور واستنباطها ،
وهم الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر ، أي هم ذوو البصيرة النافذة
بأحكام الشريعة ومصالح الأمة .

وقد سبق لأبي بكر الصديق رضي الله عنه أن قال :

«إنكم تقرأون هذه الآية من كتاب الله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (سورة المائدة الآية ١٠٥) .
﴿إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم
الله بعقاب منه﴾ (رواه أصحاب السنن) .

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قاعدة أساسية من قواعد الدين
الإسلامي ، وهي التي ميّز بها رب العالمين هذه الأمة بقوله :

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر
وتؤمنون بالله﴾ (سورة آل عمران الآية ١١٠) .

وإذا ما استمر تطبيق هذه القاعدة ضمن حدود الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر فإن السلامة تكون عاقبة الأمة في أمورها كلها ، وإذا ما تخلت عنها أو أساءت في تطبيقها انعكست آثار ذلك على الأمة فذاقت عاقبة مخالفتها لأوامر الله .

ولنقرأ قوله تعالى محذراً ومنذراً :

﴿واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب﴾ (سورة الأنفال الآية ٢٥) .

وقد وردت هذه الآية بعد قوله تعالى :

﴿يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه وإنه إليه تحشرون﴾ (الآية ٢٤) .

وإن عدم الاستجابة لله وللرسول يؤدي إلى فتنة لا تقتصر على فاعليها ، وإنما تعم الجميع وتشملهم كلهم لأنهم لم يأخذوا على أيدي الذين ظلموا فعمهم الله بعقابه ، وسيحشرهم إليه على نياتهم ويكافئهم على ما عملوا إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

البحث الثاني :

من أبواب هذا البحث :

محاسن الشريعة

- العلم بالشريعة .
- مقاصد الشريعة .
- مصدر الشريعة .
- اختلاف الشريعة الإسلامية عن القوانين الوضعية.
- من خصائص الشريعة .
- المعاملات في الشريعة .

محاسن الشريعة

١- العلم بالشريعة :

سبق أن ذكرنا أن الشريعة تعنى : ما شرع الله لعباده من الدين ، أي ما سنّ لهم من قواعد وأصول في العقيدة والعبادة والأخلاق والمعاملات ، ونظم الحياة في مختلف شؤونها امتثالاً واجتناباً وتوجيهاً . .

فالشريعة الإسلامية هي مجموعة الأوامر والأحكام الاعتقادية والعملية التي أوجب الإسلام تطبيقها والالتزام بها لتحقيق أهدافه الإصلاحية في المجتمع الإنساني قاطبة .

وان المشرع هو الله سبحانه ، وانه الخالق الأوحد لهذا الكون بما فيه من مخلوقات ، ومن أبرزها الإنسان ، وان الغرض من هذا الخلق هو عبادة الله سبحانه وتمجيده ، وان الوصول إلى تحقيق هذا الغرض هو العلم الذي أمرنا الله به في قوله مخاطباً رسوله الكريم :

﴿ فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك ﴾ (سورة محمد الآية ٩) .

وبذلك يكون العلم في الإسلام هو الوسيلة لتحقيق الغاية الكبرى ، وهي افراد الله سبحانه بالعبودية والاحلاص له فيها .

والعلم واسع الأفق ولا حدود له ، وهو الوسيلة أيضاً إلى التفقه في الدين ، هذا الدين الذي ارتضاه الله لعباده ولم يرتض لهم ديناً غيره ، وهو الدين الذي يجمع بين أمور الحياة في الدنيا والآخرة ، ولذلك ورد عنه ﷺ قوله :

«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين» (متفق عليه).

وعن طريق العلم بالأمر الشرعية يتوصل الإنسان المسلم إلى معرفة ماله وما عليه ، وما يكون فيه أهلاً لتحقيق الخلافة التي أرادها الله سبحانه لهذا الإنسان على الأرض ، هذا المخلوق المكرم الذي خلق له ما في الأرض جميعاً ، وسخر له ما في السموات وما في الأرض ، هذا التكريم المشروط بالتقوى .

وبذلك تكون الشريعة الإسلامية في حقيقتها إنسانية النزعة وعالمية الدعوة وخاتمة شرائع الله لعباده ، إلى يوم الدين .

أي أنها شريعة إنسانية لا تفرق بين إنسان وآخر إلا بالتقوى وما يقدمه أحدهما من خير ونفع للناس أجمعين ، لقوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة الحجرات الآية ١٣).

وهي شريعة عالمية ، أي أنها غير خاصة بفئة دون فئة ، لأن نظرتها إلى الناس أنهم أسرة واحدة كبيرة ، أصلها واحد ، لقوله سبحانه :

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (سورة النساء الآية ١) .

وهي خاتمة الشرائع الالهية لأنها جاءت لتخاطب العقل الإنساني بعيداً عن المعجزات التي كانت تأتي مؤيدة لرسالات الأنبياء قبل محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام، وهي المعجزة الوحيدة الثابتة على التفكير والتدبر والنظر في النفس الإنسانية وفي سائر ما خلق الله في هذا الكون العظيم العجيب، وأن ذلك لا يتحقق إلا بالعلم والتعرف على سنن الله سبحانه في خلقه .

٢- مقاصد الشريعة:

للشريعة الإسلامية ثلاثة مقاصد أساسية متتابعة، كل منها نتيجة لما قبله وأساس لما بعده، وهي:

أولاً: تحرير العقل البشري:

أي تحريره من رق التقليد والخرافات، وذلك عن طريق العقيدة والإيمان بالله وحده، وتوجيه العقل نحو الدليل والبرهان والتفكير العلمي الحر، ولذا كافح الإسلام عبادة غير الله في شتى صورها لأنها انحطاط في العقل وعمادة في البصيرة .

ثانياً: إصلاح الفرد:

إصلاحاً نفسياً وخلقياً، وتوجيهه نحو الخير والإحسان والواجب كي لا تطغى شهواته ومطامعه على عقله وواجباته، وذلك بممارسة الفرد

للعادة المشروعة التي تذكره بخالقه ، وبعقيدة الثواب والعقاب في الآخرة ، لكي يكون المؤمن في مراقبة دائمة لأعماله ، حريصاً على عدم التقصير في واجباته .

ثالثاً: إصلاح المجتمع:

أي إصلاح الحياة الاجتماعية بصورة يسود فيها الأمن والرخاء والعدل بين الناس وصيانة الحريات ضمن حدودها المشروعة مع المحافظة على الكرامة الإنسانية .

ولتحقيق هذا المقصد الاجتماعي الأخير، جاءت الشريعة الإسلامية بنظام نموذجي يتضمن جميع الأسس اللازمة لإقامة حياة اجتماعية مثلى ، ضمن إطار الدولة وتنظيم صلات الناس بعضهم مع بعض ، وصلاهم بالسلطة الحاكمة ، وصيانة الحقوق الخاصة للأفراد ، والحقوق العامة للجماعة .

من هذه المقاصد الثلاثة في الشريعة الإسلامية يتضح لنا أنها تقوم على ثلاث دعائم :

١- عقيدة عقلية .

٢- عبادة روحية .

٣- ونظام قانوني قضائي .

وهذا هو المعنى المراد عندما يقال : ان الإسلام دين ودولة .

هذا ويجب التفريق بين النظام والتطبيق ، إذ لا ينكر أنه في الواقع العملي والتاريخي كثيراً مايساء فهم الحقيقة الإسلامية في بعض هذه

النواحي الثلاث ، أو يساء تطبيقها ، فتظهر مشوهة^(١) .
فالدين الإسلامي ، ليس دين تعبد فقط ، وإنما هو دين حياة ،
يحقق التوازن بين متطلبات الروح ومتطلبات الجسم ، وإن التشريع الوارد
في هذا الدين هو جماع الأمرين المذكورين ، دون تفريط أو إفراط في
مصلحة أحد الجانبين على حساب الآخر .

٣- مصدر الشريعة :

إن مصدر الشريعة الإسلامية مصدر إلهي ، نزل به الروح الأمين
جبريل ، على قلب محمد رسول رب العالمين ، ليكون من المنذرين ،
بلسان عربي مبين ، وتبياناً لكل شيء وهدى ورحمة .
فالشريعة الإسلامية مصدرها الله سبحانه وتعالى ، وهي تتضمن
الأمر إلى الرسول ليبين للناس ما نزل إليهم ، وليحكم فيهم بما أراه الله ،
كما تتضمن الأمر إلى المؤمنين بأن يطيعوا الرسول وأن يأخذوا ما آتاهم ،
ويبتئوها عما نهاهم .

فللشريعة الإسلامية مصدران أساسيان هما :

كتاب الله ، وسنة رسوله .

(أ) أما الكتاب :

وهو القرآن ، فإنه الأصل في الشريعة الإسلامية لأنه يتضمن أسسها
ويوضح معالمها في العقائد تفصيلاً وفي العبادات والحقوق إجمالاً .

(١) انظر كتاب (الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد) للأستاذ مصطفى الزرقاج ١ ص ٣١ .

والقرآن للشريعة الإسلامية ، كالدستور للشرائع الوضعية لدى الأمم ، وهو القدوة للنبي ﷺ نفسه ، ومن بعده ، ولذا كان المصدر التشريعي الأصلي .

غير أن الكتاب بصفته الدستورية إنما يتناول بيان الأحكام بالنص الإجمالي ولا يتصدى للجزئيات وتفصيل الكيفيات إقليلاً ، لأن هذا التفصيل يطول به ويخرجه عن أغراضه القرآنية الأخرى من البلاغة وغيرها .

فقد ورد فيه الأمر ، مثلاً ، بالصلاة مجملاً ، ولم ترد فيه كيفية ولا مقادير ، بل فصلتهما السنة بقول الرسول ﷺ وفعله .

وكذلك أمر القرآن بالوفاء بالعقود ، ونص على حل البيع وحرمة الربا إجمالاً ، ولكن لم يبين ما هي العقود الصحيحة التي يجب الوفاء بها . وما هي العقود الباطلة أو الفاسدة التي ليست محلاً للوفاء فتكفلت السنة أيضاً ببيان أسس هذا التمييز .

على أن القرآن قد تناول تفصيل جزئيات الأحكام في بعض الموضوعات ، كما في المواريث والمحارم من النساء في النكاح ، والحدود . . (ب) أما السنة :

فهي تطلق على ما جاء منقولاً عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل أو تقرير ، وهي تلي الكتاب رتبة في مصدريّة التشريع ، من حيث إن بها بيان مجمله وإيضاح مشكله وتقييد مطلقه وتدارك ما لم يذكر فيه .

فالسنة مصدر تشريعي مستقل ، لأنه قد يرد فيها من الأحكام ما لم يرد في القرآن ، غير أن هذا الاستقلال لا يخرجها عن مبادئ القرآن

وقواعده العامة، حتى فيما تقرره من الأحكام التي لم يرد ذكرها في القرآن، فمرجع السنة في الحقيقة إلى نصوص القرآن وقواعده العامة^(١).

٤- اختلاف الشريعة الإسلامية

عن التشريع الوضعي :

إن التشريع الإسلامي هو تشريع رباني، وضعه خالق البشر، العارف بطبائعهم، والخبير بما هم في حاجة إليه، وهو وحي واجب الاتباع، لا سبيل إلى تغييره من أحد مهما كانت سلطته، والنبى مع تفويض الله له بحق التشريع ابتداءً، فيما تقتضيه مصلحة الأمة لا يخرج عن هذا الوحي لقوله تعالى على لسان نبيه في القرآن الكريم: ﴿إِنْ أَتَبَعَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾.

كما أن النبى - ﷺ - لا يحكم بين الناس إلا بما أراه الله، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾. فهو تشريع منزّه عن التلاعب والأهواء.

أما التشريع الوضعي، فإن الذين يضعونه بشر، يتأثرون بما يتأثر به أفراد البشر من أهواء ونزعات وعواطف بشرية، فيقعون تحت تأثير هذه العوامل التي قد تبعدهم عن التزام الحق والعدل، لهم أو عليهم، وتقدير المصلحة العامة للفرد وللمجتمع على السواء^(٢).

(١) الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد ج ١ ص ٦٣.

(٢) لمحة من تاريخ التشريع الإسلامي للأستاذ مناع القطان. بحث منشور له في مجموعة

محاضرات العالم الإسلامي عام ١٣٨٦ ص ٢١٢.

وإن هؤلاء البشر لا يدوم شأنهم على حال ، فقد ينسخ بعضهم حكم بعض أو يبطله ، أو يزيد عليه ، وبذلك تختلف موازين الحياة ومقاييس الخير والشر ، وتتلون بتلون الإنسان وتحول ميوله وعواطفه ، فظل الحياة الإنسانية في اضطراب دائم كما نشاهده اليوم في حياة الأمم التي تحكم بغير ما أنزل الله .

والشريعة الإسلامية ولدت متكاملة ، وافية بمطالب الحياة ، محكمة صافية ، أما التشريع الوضعي فهو مقتصر على الجماعة التي وضعته ، والعصر الذي وضع فيه ، فهو في حاجة إلى التغيير والتبديل كلما تطورت الجماعة وتجددت مطالبها .

والشريعة الإسلامية لم تأت لقوم دون قوم ، أو لعصر دون عصر ، ولكنها قواعد كلية ثابتة مستقرة ، تسد حاجة الجماعة وترفع مستواها في كل عصر ، كما أنها تتناول الإيمان بالله ورسله ، وعالم الغيب ، وصلة العبد بربه ، وسلوكه الأخلاقي ، وتعامله مع الآخرين ، وأنظمة الحياة المختلفة في شتى مرافقها .

وهذه الشريعة تنبثق من فكرة الحلال والحرام ، والإيمان بالدار الآخرة ، وتربي الضمير الإنساني ليكون رقيباً على المسلم في السر والعلن ، ويخشى الله ويخشى عقابه الأخروي أكثر من خشيته للعقاب الدنيوي .

٥- من خصائص الشريعة :

وفي ضوء ما تقدم ، نستخلص من خصائص الشريعة أمرين رئيسين :
أولهما : شمول الشريعة :

إن الأحكام التكليفية في الشريعة الإسلامية جاءت شاملة لشؤون الحياة كلها، في العقيدة وما يتصل بها من عالم الغيب، وفي العبادات وكيفيةها وتفصيلها، وفي المعاملات اللازمة لحياة الجماعة في تبادل المنافع، وفي حياة الأسرة وواجبات كل من الراعي والرعية، وفي القضايا المالية والاقتصادية والإدارية، وفي حالات الحرب والسلام والعلاقات الدولية، وفي الحياة الخاصة للفرد بالأكل والشرب، واللباس والكلام ونحو ذلك .

فما من ناحية من هذه النواحي إلا وتناولتها الشريعة الإسلامية في القرآن والسنة، بالنص أو المعنى وأوضحت فيها الخير والشر، والطيب والخبيث والصحيح والفساد، في صورة كاملة محكمة، لنظام الحياة في الإسلام، الذي يجب أن يقوم على فعل الحسنات وتجنب السيئات والعمل على استئصالها .

وثانيها : كلية الشريعة :

إن هذه الشريعة كل لا يقبل التجزئة، فهذا المنهج التشريعي لفروع الحياة الإنسانية بكافة صورها، يمثل وحدة متكاملة لا تقبل التجزئة، هذه الوحدة التي تسمى إسلاماً، فلا يجوز أن يأخذ الناس بعض هذه الشريعة دون بعض، لأنّ جوانبها المختلفة تكون بمجموعها دين الله، وإن الأخذ بجزء دون آخر يخل بهذه الشريعة ويشوه حقيقتها . والمجتمعات التي تنتسب إلى الإسلام وتعمل بجانب منه، وتترك جوانب أخرى، لا يتحمل الإسلام أوزارها ومفاسدها .

فالإسلام : عقيدة وعبادة، وخلق وتشريع، ومصنع وحقل، وقلم وسيف . . أي هو كل ما تقتضيه موجبات الحياة الحرة العزيزة، مصداقاً

لقلوه تعالى :

﴿يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحيككم﴾
(سورة الأنفال الآية ٢٤)

٦- المعاملات في الشريعة :

يراد بالمعاملات هنا، بشكل موجز، ما يقع بين الناس من ضروب تبادل المنافع في مجالات الحياة، من أخذ وعطاء وبيع وشراء، ورهن وهبة، وقرض وتأجير وتوريث. . وغير ذلك، مما تنتقل به الأشياء والمنافع من يد إلى أخرى.

والإسلام لم يكتف بالدوافع الطبيعية التي تدفع بالإنسان إلى العمل، وابتغاء الرزق لتأمين ما يحتاج إليه، وتحقيق مطامحه وآماله. . بل عمل على إيقاظها وحمايتها من آفات التواكل، التي تتسلط على بعض النفوس الضعيفة فتمسك بها عن السعي والجد. . ودعا إلى العمل وأهاب بأتباعه أن يعملوا، ورفع مكانة العمل والعاملين، فجعل منها قرابة إلى الله، أي تحقيقاً لطاعة من الطاعات التي يأمر الله الناس بها.

وإذا كان العمل فطرة مركوزة في الإنسان، فإن الإسلام لم يشأ أن يعترض هذه الفطرة أو يحجز عليها، بل ترك أبواب العمل ومجالاته كلها مفتوحة للإنسان، يدخل من أي باب، ويسلك أي مسلك، فكل عمل يبلغ بالإنسان غاية، ويحقق له نفعاً من غير أن يؤدي غيره أو يؤدي الناس معه، هو عمل مبرور يركبه الإسلام، ويجزي عليه الجزاء الحسن.

وحين نستعرض موقف الإسلام من أعمال الناس في شؤون الحياة، نراه لا يتدخل فيها إلا بقدر، وفي أضيق الحدود. . يضع مبادئ عامة

يسير الناس على هديها، ويصرون بها عشرات الطريق، ثم هم بعد هذا وشأنهم، يذهبون كل مذهب يرون فيه مصلحتهم.

وقد جاءت الشريعة بالنسبة للمعاملات وغيرها من شؤون الحياة باليسر في التعاقد والارتباطات، وبخاصة في الأمور التجارية، وحضت على التمسك بالآداب الحسنة وحرمت من المعاملات ما فيه ضرر، وأوجبت ما لا بد منه، واستحبت ما فيه مصلحة راجحة.

لأن هذه المعاملات لا تخرج عن كونها عادات تعارف عليها الناس، الأصل فيها الإباحة، وعدم الحظر، إلا ما تحقق ضرره، فإن علة تحريمه تعود إلى تحقيق الضرر فيه أو غلبة الضرر عليه.

وهذه المعاملات تحكمها العقود، أي شروط المتعاقدين، ما لم تكن شروطاً أحلت حراماً، أو حرمت حلالاً، فإن هذه الشروط لا تكون معتبرة لقول الرسول الكريم:

«ما بال أقوام يشترطون شروطاً ليست في كتاب الله، ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل، وإن شرط مئة شرط، كتاب الله أحق وشرط الله أوثق».

وورد في كتاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه - الخليفة الثاني - الذي كتبه لعامله أبي موسى الأشعري «المسلمون عند شروطهم، إلا شرطاً أحل حراماً أو حرم حلالاً، والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً».

ولهذا اتفق العلماء على أن من شرط في عقد من العقود شرطاً ينافي أو يناقض حكم الله أو حكم رسوله فهو باطل. أما غير ذلك من الشروط المقصودة من أحد الطرفين فلا مانع منها، وتعتبر لازمة إذا تم الاتفاق عليها.

العدل في الشريعة

قامت الشريعة الإسلامية على العدل الذي هو الانصاف وإعطاء الحق ، وصدق الموازنة بين الطرفين ، ويكون مع النفس ومع الآخرين ، ومع الحيوان ومع الصديق والعدو . .

فالإسلام يدعو إلى تطبيق العدالة مع كل إنسان حتى مع الحيوان . فالعدل مع النفس : أن تحسن إليها بما يجعل منها نفساً رضية مطمئنة ، وأن تحول بينها وبين ما يشينها ، وأن لا تكون سبباً في هلاكها ، بأن تسلك مسلكاً يؤدي بها إلى الخسران في الدنيا والآخرة .

والعدل مع الآخرين : أن تصدق في التعامل معهم ، وأن تبذل لهم النصيحة ، وأن لا تنسيء إلى أحد منهم بقول أو فعل ، لا في سر أو علن ، وأن تنصفهم من نفسك ، وأن لا ترى لك عليهم أي فضل ، وأن تقبل من محسنهم وتصبر على ما يصيبك منهم . .

والعدل مع الحيوان : أن لا تعذبه ولا تمنع عنه غذاءه وشرابه ، وأن لا تقتر عليه فيه وأنت قادر على كفايته ، وأن لا تحمل عليه فوق طاقته ، وإذا كان مما يذبح ، أن تريحه قبل ذبحه ، فتسقيه الماء مثلاً ، وأن تحسن ذبحه فتحد الشفرة ، وأن لا تأتيه من قبل عينيه . أو أن تذبحه في حضرة غيره من الحيوان وهو يرى . . وإذا كان مما تحفظه في بيتك أو في قفص كاهر أو

الطير، أن توفر له ما يستطيع العيش معه دون عذاب، وإن لم تستطع ذلك أن تطلقه، إلى آخر ماجاء في الرحمة بالحيوان، لأن في كل كبد رطوبة أجبر، وهذا القول يفيد أيضاً أن إيذاء ذي الكبد الرطوبة فيه وزر على فاعله .

وإن أجمع آية لمعاني الشريعة الإسلامية قوله تعالى : ﴿إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾ (من سورة النحل الآية ٩٠) .
وقد ورد لفظ العدل معروفاً بأل، ومطلقاً، فهو لفظ يشمل كل مفهوم للعدالة وفي كل مناحيها .

ومن هذا الاطلاق للفظ العدل يتأكد لنا أن العدل يقصد منه وضع الأمور في نصابها وعدم تجاوزه لأي سبب لا يقره الشرع .
والعدل : مقام في النفوس أنه مستقيم، وهو ضد الجور، والرجل العدل : هو الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم . والعدل : الحكم بالحق، يقال : هو يقضي بالحق ويعدل . والعدل من الناس : المرضي قوله وحكمه .

والعدل مطلوب في الشريعة الإسلامية حتى مع من يعادينا، ومع الوالدين والأقربين . . لقول الله تبارك وتعالى :

﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ (من سورة المائدة الآية ٨)

إن الخطاب موجه للذين آمنوا، أي إلى المؤمنين بالله، الأخذين بأوامره دون تردد، بأن عليهم أن يكونوا متحلين بخلق العدالة، قائمين

به وقوامين عليه ، لا يأخذهم في تحقيق ذلك لومة لائم ، وأن لا يكون حرصهم على ذلك رياء للناس أو طلباً لحسن السمعة بل يكون ذلك خالصاً له سبحانه ، لأنه خير بخفايا النفوس .

وأن لا تحملهم عداوة قوم على ترك العدل معهم ، ومعاملتهم بغير الحق ، أو أن يشهدوا ضد أحد منهم شهادة زور ، لأن الله سبحانه يحاسب على ذلك حساباً شديداً ، حيث أمر بالعدل وأنه أقرب لتقواه ، أي لاتقاء عقوبته يوم القيامة ، فهو الخبير بما يصنعون .
ويقول سبحانه :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّوا أَوْ تَعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ (من سورة النساء الآية ١٣٥) .

إن الشهادة على النفس هي الإقرار بالحقوق عليها ، وكذلك الشهادة بالحق ولو كان المشهود عليه أحد الوالدين أو الأقربين ، مهما كان وضعه ، غنياً أو فقيراً ، لأن الغني لا يوجب شهادة الحق لصاحبه وهو مبطل ، وكذلك الفقر ، لا يمنع شهادة الحق له ولو كان فقيراً مادام محقاً . .

وحذرنا سبحانه من أن نتبع الهوى - في الشهادة لمن نحب ضد من لا نحب - خلافاً لما تقتضي به العدالة ، لأن الهوى سبيله التردى في ارتكاب الظلم ، أو أن نعرض عن الحق ونميل إلى من نهوى ولو كان غير محق ، وأكد سبحانه على وجوب اتباع الحق والأخذ بالعدل دون غيره .

البحث الرابع :

العدالة في توزيع الميراث

الميراث : من ورث يرث إرثاً وميراثاً . والإرث : هو ما يخلفه الميت من مال وغيره لورثته ، أي لأهله الأقربين الذين لهم حق فيما خلفه ، أو تركه بعد وفاته . ولذلك سمي الإرث : تركة .

والوارث : من أسماؤه الله الحسنى ، أي الباقي الدائم الذي يرث الخلائق ويبقى بعد فنائهم ، يقول سبحانه :

﴿ولله ميراث السماوات والأرض والله بما تعملون خبير﴾ (سورة آل عمران الآية ١٨) .

ويقول أيضاً :

﴿إنّا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون﴾ (سورة مريم الآية ٤٠)

وهو سبحانه : خير الوارثين .

وقال الله تبارك وتعالى إخباراً عن زكريا ودعائه إياه : ﴿فهب لي من لدنك ولياً يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً﴾ (سورة مريم الآيتان ٦/٥)

وقال تعالى : ﴿وورث سليمان داود﴾ (سورة النمل ١٦) .

وارث الأنبياء لا يكون في المال ، وإنما في النبوة لقوله ﷺ :

«العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً وإنما ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر) .

والميراث أو الإرث : نظام مالي يتعلق بتوزيع تركة الميت على من يستحقها من أقربائه الأحياء ، بعد سداد الحقوق المترتبة على الميت في حياته .

وهو نظام دقيق يقوم على مبدأ الغنم بالغرم ، أي ان الذين يستحقون من تركة الميت بعد وفاته ملزمون بنفقتهم في حياته إن كان معسراً ، الأقرب فالأقرب .

والارث لا يتحقق إلا بعد خلاص التركة من حقوق الغير، بما في ذلك تجهيز الميت وتكفينه ، ومن ثم الدين .

والورثة لا يلزمون بدين مورثهم ، إن لم يبق شيئاً ، إلا أن يتطوعوا بسداده إنقاذاً لنفس مورثهم لقوله ﷺ :

«نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه» (رواه أحمد والترمذي وابن ماجه) .

وما كان عليه الصلاة والسلام يصلي على ميت عليه دين ، إن لم يترك وفاء له أو يضمه عنه شخص آخر، حتى وجد الوفري بيت مال المسلمين .

«عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يؤتى بالرجل المتوفي عليه الدين ، فيسأل : هل ترك لدينه فضلاً؟ فإن حُذث أنه ترك وفاء صلى ، وإلا قال للمسلمين : صلوا على صاحبكم ، فلما فتح الله عليه الفتوح قال :

«أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن توفي من المؤمنين فترك ديناً

فعليّ قضاؤه، ومن ترك مالا، فلورثته» (متفق عليه).

وللميت حق في تركته لا يتجاوز الثلث، فله في حياته أن يوصي منها ضمن حدود هذا المقدار، ودون أن يتوقف على إجازة أحد، أما إذا كان ما أوصى به يتجاوز ثلث تركته، فإن هذه الوصية لا تنفذ إلا بمقدار الثلث، أو إذا أجاز ذلك الورثة، لأن الإرث أصبح من حقهم، فلهم حق الإجازة لما يزيد على الثلث. والإرث لا يرتد بالرد، أي لا يصح من الوارث رفض إرثه من مورثه.

وقد قال ﷺ:

«إن الله تصدق عليكم، عند وفاتكم، بثلث أموالكم، زيادة في أعمالكم» (رواه الطبراني في الكبير).

والوصية لا تكون لأحد من الورثة، لقوله ﷺ: لا وصية لوارث. رواه الدارقطني إلا إذا أجاز الورثة ذلك.

والإرث لا يختص به الذكور دون الاناث، فالأم والزوجة والبنات والاخت والجدّة، يرثن من مورثهن حسب الأنصبة المخصصة لهن في هذا النظام المالي، وكذلك الرجال، فإن الورثة منهم هم الفروع والأصول والإخوة لأب أو لأم والزوج، وباقي العصبة الذين هم أقرب إلى الميت من غيرهم عند انعدام الوارث الأقرب.

ومقدار أنصبة الورثة تختلف حسب التكاليف التي يتحملها الوارث، فالمرأة ترث نصف الرجل، إذا كانت بنتاً أو زوجة، وقد تتساوى مع الرجل كالأخت لأم مع الأخ لأم، فهم شركاء في الثلث، وإذا انفرد كل منهما فله السدس، ولأبويه (الأب والأم) لكل واحد منهما السدس

إذا كان للميت فرع وارث .

وإذا كانت الشريعة الإسلامية قد أعطت الرجل في بعض الحالات ضعف حظ الأنثى ، ذلك لأن الرجل في النظام المالي الإسلامي يتحمل من الأعباء المالية ما لاتتحمله الأنثى ، فهو الذي ينفق عليها وعلى أولاده منها وعلى أبويه ، وقرباته الأذنين ، إن كانوا فقراء ، لأن نفقة كل إنسان من ماله الخاص إن كان له مال ، إلا الزوجة فنفقتها على زوجها ولو كانت غنية .

والرجل ملزم بدفع المهر للمرأة ، والإنفاق عليها طوال حياتها الزوجية .

وإن نظام الارث في الشريعة الإسلامية يقوم على توزيع التركة بين الورثة وعدم حصرها في رجل واحد كما هو شأن بعض الأمم سابقاً ولاحقاً .

وهو نظام يتوخى العدالة في إعطاء كل ذي حق حقه ، ومبني على مبدأ التكافل بين أفراد المجتمع ، لأن الفقير له حق على قريبه الغني ، كما له حق على مجتمعه في حال عدم وجود قريب له غني ، لديه الاستطاعة في تقديم معاش إلى قريبه الفقيريقيه مذلة السؤال .

وإن مبدأ التكافل الاجتماعي في الشريعة الإسلامية مبدأ إلزامي يجب على المستطيع تجاه أخيه المحروم ، أو المفقر عليه في الرزق ، وليس فيه منة أو تفضل .

أما التصديق تطوعاً ، فهو من أبواب الفضل الذي سيرد معنا في أبواب الفضل من هذا الكتاب .

العدل أو

التوازن بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع

إن الفرد هو لبنة من لبنات المجتمع ، ومنه ومن أمثاله يتشكل المجتمع ، وإن في صلاح هذا الفرد صلاحاً للمجتمع ، فمن مصلحة المجتمع أن يكون أفراده أقوياء أصحاب متعلمين ، متعاونين . . إلى آخر ما هنالك من صفات الصلاح التي يجب أن يتحلى بها الفرد لينعكس بتصرفاته وأعماله الصالحة على المجتمع .

ولهذا فإن مصلحة المجتمع تتعلق وتُبنى على مصلحة الفرد ، وإن تقوية الفرد وإعداده إعداداً متكاملأ يعود ذلك كله على المجتمع ، وكذلك العكس ، فإن ضعف الفرد يؤثر على المجتمع . وإن من مصلحة المجتمع العناية والرعاية لأفراده ، وعدم التهاون في إصلاح أمورهم ، لأن في إصلاحها إصلاحاً لأمر المجتمع كله ، وإن من أبرز العوامل التي توجد الاستقرار في المجتمع أن يسود العدل بين أفرادها ، وإن طغيان مصلحة الفرد على غيره ، هو طغيان في الحقيقة على مجتمعه ، وإن سكوت هذا المجتمع على طغيان هذا الفرد هو بداية المرض الذي يتسرب إلى جسم الأمة فيودي بحياتها ، لأنها تهاونت في درء الخطر عن نفسها

بتقويم ومعالجة أحد أفرادها، فاستشرى المرض في أعضائها، وعجزت عن مداواته فأخذ التلف يدب في جسم المجتمع كله .

وإن التوازن بين مصلحة الأفراد بعضهم مع بعض ، هو توازن للمجتمع ، وإن طغيان الفرد على غيره وطغيان المجتمع على الفرد ، هو أيضاً إخلال بهذا التوازن وتعطيل للمقيم الإسلامية التي أمر الإسلام برعايتها . والأخذ بالتوازن هو العدل الذي تنشده الشريعة من معتنقيها .

وقد شدد الإسلام على مسؤولية الفرد وعلى وجوب استقامته ، كما أنه أخذ الجماعة عند تهاونها في قمع الفساد الناشئ عن استهتار بعض أفرادها ، وتمكينهم من الشذوذ على القيم المتعارف عليها ، لأنها بذلك قد مكنت للفساد أن ينتشر ، ولضعاف النفوس أن ينزلقوا في هذه الطريق التي لم تحكم مغالقتها . .

وفرق الإسلام بين فرض العين وفرض الكفاية ، فجعل مسؤولية التهاون في فرض العين ، مقتصرة على صاحبها ، مع ملاحظة توجيهه إلى مايجب عليه سلوكه ، والمؤاخذه هنا تقتصر على من فرط في حقه .

أما فرض الكفاية فإن التفريط فيه تقع مسؤوليته على الجميع ، لأنه فرض لابد من إقامته ورعاية وجوده واستمرار هذا الوجود .

ولهذا كان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من واجب الجماعة - إضافة إلى أنه واجب فردي - غير أن طابع الجماعة فيه أغلب ، ولذلك قال سبحانه في سورة آل عمران :

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ (الآية ١٠٤) .

فإذا انعدم وجود الأمرين بالمعروف والناهين عن المنكر، فقد تُودَّع من هذه الأمة .

وإن هذه الآية المستشهد بها من سورة آل عمران تعقبها بعد ست آيات آية يقول فيها رب العالمين : ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ (الآية ١١٠ ، بعد أن قال : ﴿ ولتكن منكم أمة ﴾ . . الآية . .

إن هذا القول التعميمي من الله سبحانه بأنهم خير أمة أخرجت للناس ، كان ذلك لالتزامهم جميعهم بهذه الصفة الإيمانية العظمى ، التي بسببها كانوا خير أمة أخرجت للناس ، صفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . فكانوا يأمرون بالمعروف ويأمررون ، وينتهون عن المنكر وينهون ، ولا يقرون منكراً بين ظهرائهم . .

حتى أن بعضهم كان إذا بايعه الرسول ﷺ بايعه على النصح لكل مسلم . إن هذه الصفات الإيمانية التي كانت غالبية على هذا الجيل المثالي ، الذي هو سلف هذه الأمة وقدوتها ، وسجلها لهم رب العالمين في كثير من آيات كتابه العزيز ، فقال عنهم في سورة الأنفال :

﴿ والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقاً لهم مغفرة وأجر كريم ﴾ (الآية ٧٤) .

فقد جمع سبحانه بين المهاجرين والأنصار وهم السابقون الأولون ، وشهد لهم بأنهم المؤمنون حقاً ، وهل بعد هذه الشهادة من الله سبحانه من وصف أعظم منه ؟

وإن من أبرز صفات المؤمنين : أنهم رحماء بينهم ، وأنهم يؤثرون على أنفسهم ولو كانت بهم خصاصة ، وأنهم يطعمون الطعام على حبه

مسكيناً ويتيماً وأسيراً، وأنهم يعملون الصالحات ويتواصون بالحق ويتواصون بالصبر، وأنهم يجتنبون كبائر الاثم والفواحش، وإذا ما غضبوا هم يغفرون. . . وهم الذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم، ومما رزقهم ربهم ينفقون. . . وهم الذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون. . .

هذه بعض صفات هؤلاء المؤمنين حقاً. . . وما أجدنا أن نتخلق بها، ونكون في عدادهم يوم نعرض جميعنا على الله، وكتاب كل منا في يمينه ولسان حاله يقول:

﴿هاؤم اقرؤا كتابيه. إني ظننت أني ملاقي حسابه. فهو في عيشة راضية. في جنة عالية. قطوفها دانية. كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية﴾ (سورة الحاقة الآيات ١٩-٢٤).

وإن من أبرز عوامل التوازن التي أوجبها الإسلام في المجتمع، استيفاء الزكاة من الأغنياء وردها على الفقراء. . . أي تحقيق العدالة في توزيع الثروة وعدم حصرها في أيدي قليلة.

فالزكاة في الإسلام هي حق المال، وهي حق اجتماعي، لأنها فرضت لتغطية كثير من الحاجات، التي ينشأ عن تغطيتها أو سدها إيجاد التوازن بين الطبقات الاجتماعية أو بين المتفاوتين بالرزق، وذلك بأن يؤدي من أنعم الله عليهم جزءاً معلوماً من أموالهم للمقتر عليهم بالرزق أو للغارمين أو لابن السبيل، أو لإعتاق رقاب عند وجودها، أو في سبيل الله، أو لكل هذه المصارف وللعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم إذا وجد ولي الأمر وجوباً لذلك.

ولما توفي رسول الله ﷺ ارتدت بعض القبائل العربية عن الإسلام، وامتنع بعض منها عن أداء الزكاة مع إقرارها بالشهادتين وأقام الصلاة. فلم يقبل منهم ذلك أبو بكر رضي الله عنه، وأصر على محاربتهم إن لم يؤدوها كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله، لأن إيتاء الزكاة مقرون بإقام الصلاة.

وقد كان موقف أبي بكر من مانعي الزكاة موقفاً انتصر فيه لهذا الجانب الاجتماعي العظيم، الذي لم يقبل فيه مساومة ولا مهادنة، ولم ينتصر فيه لنفسه، أولتبيت مركزه، وإنما كان منه ذلك انتصاراً لأحد أركان الإسلام، لأن الإسلام كل لا يتجزأ ومن أركانه الأساسية الزكاة.

وإن أبا بكر لم يحارب هؤلاء الممتنعين عن دفع الزكاة إلا لاعتقاده أن الزكاة لم ترد في القرآن العظيم إلا مقرونة بالصلاة، وأن من فرق بين الزكاة والصلاة فقد أنكر وجوب هذا الركن الهام من أركان الإسلام، ولذلك أصر على محاربتهم، وكانت أول حرب تعلن على الأغنياء في سبيل تحقيق مصلحة الفقراء وإيجاد التوازن النسبي بين كل من هاتين الطبقتين.

يقول الله تبارك وتعالى موجهاً الخطاب إلى رسوله الكريم بصفته وليّ أمر المسلمين:

﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم﴾ (سورة التوبة الآية ١٠٣).

إن هذا الأمر من الله يوجب على وليّ الأمر أن يتولى جباية الزكاة وجمعها، ومحاسبة المكلفين بها عليها، وإن ورود مصرف من مصارف الزكاة مخصص للعاملين عليها يفيد هذا الوجوب، أي أن الدولة هي

التي تقوم بتسمية العاملين على جباية الزكاة .

وكلمة (أموالهم) تفيد جميع ما يمتلكونه مما يطلق عليه اسم مال فيما إذا زاد على النصاب المعفي الذي به يتحقق معاش المكلف وأسرته أو من يعوله . .

وشمول الزكاة لجميع الأموال يعطي وارداً كبيراً للدولة ينحصر إنفاقه في المصارف التي تعددها الآية التالية من سورة التوبة :

﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾ (الآية ٦٠)

ومن استعراض هذه المصارف يتبين لنا أنها تخصصت بمن هم أكثر عوزاً وحاجة من غيرهم ، وأن تغطية حاجاتهم الضرورية إلى حد الكفاية فيه تحقيق لمعنى التكافل والتوازن الذي ينشده الإسلام في نظامه المالي ، وأن هذه الفريضة من الله سبحانه لا تشعر هذا الفقير أو المسكين أو الغارم أو ابن السبيل بأي غضاضة عليه ، لأنه في الأصل - وهو ما يجب أن يكون عليه الحال - لا يستلمها من شخص معين ، وإنما تأتيه عن طريق الدولة ، راعية شؤون الأمة جميعها ، وهي ليست منة تمنّ بها الدولة عليه ، وإنما هي حق له عملت الدولة على جمعه ممن كان في حوزته وأوصلته إليه . .

وهي حافز كبير على رفع مستوى المعوزين ، ودافع إلى الاستعداد للكسب وابتغاء فضل الله . . فيما إذا كانوا غير عاجزين عن الكسب ، وإنما لم تكن مواردهم كافية لتغطية نفقاتهم ، أو أنهم لم يجدوا عملاً يغنيهم عن قبول الزكاة . .

أما إذا كانوا عاجزين ، فإنها حق خالص لهم ، لا يحق لأحد أن يمنعهم إياه ، علماً أن الزكاة لا تعطى لغني ولا لذي مِرَّة قويّ .
وإن الزكاة تبقى في ذمة المكلف حتى تتسلمها منه الدولة أو يقوم هو بدفعها إلى مستحقيها ولا تبرأ ذمة المكلف إلا بإخراجها من ماله عند وجوبها فيه .

وقد قرر جمهور الفقهاء أن من يموت ولم يؤد الزكاة الواجبة عليه تكون ديناً في التركة لا تخلص لورثته إلا بعد سدادها .

وتجدر ملاحظة أن الزكاة يجب أن تصرف في البلد الذي جمعت فيه ، أي أن تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم ، ولا تنتقل لبلد آخر إلا بما يزيد على حاجات ذاك البلد ، وهذه قاعدة تؤكد على محلية الإنفاق .

ويقرر الفقهاء جواز نقل الزكاة إلى بلد آخر إذا كان فيه ذوو قرابة لدافع الزكاة ليسوا من أصوله ولا من فروعه ، ولم يحكم لهم بنفقة قرابة ، فإن إعطاء هؤلاء يتحقق فيه أداء واجب الزكاة وأداء واجب صلة الرحم ، وتتحقق العدالة بين الأقارب من أفراد الأمة .

لأن العدالة كما سبق في تعريفها : هي الإنصاف بين الناس وإعطاء الحق وصدق الموازنة فيما بينهم .

والزكاة حق يجب على المكلف إعطاؤه لمستحقيه ، وليس تفضلاً ، ولذلك تكون من أبواب العدل التي تحرص الشريعة الإسلامية على إقرارها بين أتباعها ، وهذا ماسنزيد في إيضاحه في الفصل التالي .

العدل في فريضة الزكاة جباية وتوزيعاً

الزكاة فريضة مالية دورية محددة المقدار (أو النصاب) في الأموال النامية، وتتسم بالدوام والثبات، وهي ركيزة كبرى من ركائز النظام المالي في الإسلام، تقوم على جبايتها الدولة امتثالاً لأمره تعالى: ﴿خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها﴾ (سورة التوبة الآية ١٠٣)، وتضعها في المصارف التي حددها رب العالمين بقوله:

﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾ (سورة التوبة الآية ٦٠).

وإذا لم تقم الدولة بجبايتها - لسبب من الأسباب - فلا بد من أن يخرجها المكلف ويضعها في أحد المصارف المذكورة آنفاً، ولا تبرأ ذمته منها إلا بذلك.

وهذه الفريضة واجبة في المال، فيما إذا زاد على النصاب المحدد شرعاً^(١) وتجب الزكاة في المال (النقدي) وفي عروض التجارة وفي الأنعام مرة في العام، وتجب في الزروع والثمار عند جزائها أو قطفها. ويجب أن يتم إخراجها عند استحقاقها، كما يصح تعجيلها قبل حلول الأجل في الأثمان وفي عروض التجارة.

(١) النصاب: في الأبل، مادون الخمسة ليس فيها شيء وإذا بلغت خمسة فيها شاة وما زاد بحسابه.

ويعلل ابن قيم الجوزية وجوبها مرة في العام بقوله :

«إنه أوجبها مرة كل عام، وجعل الزرع والثمار عند كمالها واستوائها، وهذا أعدل ما يكون، إذ وجوبها كل شهر، أو جمعة يضر بأرباب الأموال، ووجوبها في العمر مرة يضر بالمساكين، فلم يكن أعدل من وجوبها كل عام مرة^(١) .

وإن العدالة متحققة أيضاً في النسبة المفروضة في المال فهي تتمشى مع مقدار ما يملكه المسلم منه، قل ذلك أو أكثر، فلا يؤخذ منه أكثر من النسبة المستحقة عليه .

وتحديد هذه النسبة تجعل المكلف على بصيرة مما يجب إخراجه من ماله النامي إذا مازاد على النصاب وفقاً للنسبة المقررة على كل نوع من أنواع المال .

وفريضة الزكاة تؤخذ من أغنياء المسلمين وترد على فقرائهم في أماكن جبايتها- إلا إذا اقتضت الحاجة غير ذلك- وبذلك يتحقق العدل في توزيع الثروة وعدم حصرها بأيدي قليلة، فينتفع المقتر عليهم في الرزق

== في البقر: ما دون الثلاثين ليس فيها شيء وإذا بلغت الثلاثين فيها تبعة ومازاد بحسابه .
في الغنم: ما دون الأربعين ليس فيها شيء ، وإذا بلغت الأربعين فيها شاة ومازاد بحسابه .
في الأثمان والعروض : ما لم تبلغ هي أو قيمتها (عشرين مثقال ذهب- والمثقال وزن ٢,٥٥ غراماً- أو مائتين درهم فضة- والدراهم وزن ١,٧٥ غراماً- ، ليس فيها شيء وإذا بلغت ففيها ربع العشر مهما بلغت .
في الحبوب والثمار: ما دون خمسة أوسق ليس فيها شيء وإذا بلغت فالعشر فيها سقت الساء أو العيون (دون كلفة) ونصف العشر بتكلفة- والوسق ستون صاعاً والصاع يساوي ١,٧٤ ، ٢ لير من القمح و٢,٧٥ لير من الماء- وما لا يمكن كيله مثل القطن والزعفران فتعتبر فيه القيمة .
وفي الركاز: الخمس . والركاز هو من دفن الجاهلية ولا يعرف له صاحب وليس عليه ما يدل أنه لمسلم .

(١) كتاب (زاد المعاد في هدى خير العباد) ج ١ ص ١٤٧ طبعة البابي الحلبي ١٣٦٩ / ١٩٥٠ .

ويقضون حوائجهم منها ، وقد ينقلب بعض هؤلاء الفقراء إلى أغنياء ،
وينقلب بعض الأغنياء إلى فقراء ، فيستحقون من أولئك نصيبهم المقدر
في أموالهم .

وهذه الفريضة هي حق في أموال المكلفين يجب لمستحقه ، والحق
هو ما يطالب به الإنسان وتنصره الدولة عليه ، وهو حق لامنة فيه ، ولا
يثير عند أخذه - مستحقه - أي نفور أو حرج .

ولا يجعل لمن أخرجه من ماله سلطاناً على من أخذه ، لأنه حق
لأخذه - أي لهذا المستحق - وليس لمن أخرجه .

وحق المال أمانة لدى صاحب المال حتى يخرج ، وبإخراجه يتطهر
المال من حق الغير ، وتزكون نفس مخرجه . لأن الزكاة - حق المال - إذا
خالطت المال ، ولم تخرج منه أفسدته .

الباب الثاني :

شريعة الفضل

ويتضمن البحوث التالية:

تقدمة : المدخل إلى شريعة الفضل.

الفصل الأول : من مواقف أهل الفضل :

١- موقف يوسف عليه السلام من إخوته.

٢- ماترون أنبيّ فاعل بكم.

٣- ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟

الفصل الثاني : من أبواب الفضل :

١- حسن القضاء.

٢- التجاوز عن المعسر .

٣- حسن الخلق .

٤- الذين يدعون بالحسنة السيئة .

الفصل الثالث: صدقة التطوع .

الفصل الرابع: الوقف أو الصدقة الجارية .

الفصل الخامس: معاملة الأعداء .

١- العدالة مع الأعداء .

٢- التجاوز عن إساءات أعداء الله.

الفصل السادس: العدالة مع الزوجات والأولاد.

الفصل السابع: التكافل وآثاره الاجتماعية.

الفصل الثامن: الإحسان خلق إسلامي:

أولاً : أن تحسن إلى من أساء إليك .

ثانياً : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

ثالثاً : الإحسان في كل شيء .

رابعاً : أن تحسن إلى جارك .

خامساً : الإحسان للوالدين .

المدخل إلى شريعة الفضل

إن حسن الخلق هو من مكارم الأخلاق وحميد الصفات ، وقد كان رسول الله ﷺ ، كما وصفه أنس بن مالك رضي الله عنه ، من أحسن الناس خلقاً (رواه مسلم) .

وكفى بوصف الله سبحانه له : ﴿وإنك لعلی خلقٍ عظیم﴾ (سورة القلم الآية ٤) .

وقد قالت السيدة عائشة رضي الله عنها إجابةً عن سؤال أحدهم لها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت :

« كان خلقه القرآن يغضب لغضبه ويرضى لرضاه » (رواه مسلم) .

وهذا الوصف يفيد أنه صلى الله عليه وسلم كان صورة صادقة لما يأمر به الله سبحانه في كتابه الكريم ، لذلك وجدناه أبعد الناس عن الانتقام لنفسه ، ما لم ينتهك شيء من حرمة الله فينتقم الله .

وهذا ما قالته السيدة عائشة فيما رواه البخاري :

« ما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء يؤتى إليه ، حتى ينتهك من حرمة الله فينتقم الله » .

وأخرج الطبراني في الأوسط من حديث أنس رضي الله عنه :

«ما انتقم- رسول الله ﷺ - لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله، فإن انتهكت حرمة الله كان أشد الناس غضباً لله» .

وبذلك كان ﷺ المثل الأعلى في حسن الخلق - وإن قوله ﷺ :
«بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» دليل على شدة حرصه ﷺ على تخلق المسلم بالأخلاق الحسنة^(١) .

عن أبي عبدالله الجدلي قال : قلت لعائشة : كيف كان خلق رسول الله ﷺ في أهله؟ قالت :

«كان أحسن الناس خلقاً، لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً ولا سخاباً بالأسواق ولا يجزي بالسيئة مثلها ولكن كان يعفو ويصفح» (رواه الامام أحمد) .

ويروي الامام مسلم عن عبدالله بن عمرو أنه قال :

«لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً وأضاف قائلاً : قال : رسول الله ﷺ : إن خياركم أحاسنكم أخلاقاً» .

كما حض الرسول ﷺ على التخلق بالأخلاق الحسنة ،

روى مالك أن معاذ بن جبل قال : آخر ما أوصاني به رسول الله ﷺ حين وضعت رجلي في الغرز (في ركاب الجمل) : أن قال : «أحسن خلقك للناس يا معاذ بن جبل» .

وذلك بأن يظهر لمجالسه أو الوارد عليه البشر والحلم والإشفاق والصبر على التعليم والتودد إلى الصغير والكبير^(٢) .

(١) قال الباجي : كانت العرب أحسن الناس أخلاقاً بما بقي عندهم من شريعة إبراهيم . وكانوا ضلوا بالكفر عن كثير منها - فبعث ﷺ ليتمم محاسن الأخلاق ببيان ما ضلوا عنه ، وبما قضي به في شرعه . وقال ابن عبدالبر : يدخل فيه الصلاح والخير كله والدين والفضل والمروءة والاحسان والعدل . فبذلك بعث ليتممه . (من كتاب موطأ مالك ص ٥٦٤ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي - كتاب الشعب) .

(٢) المرجع السابق ص ٥٦٣ .

وقد رفع - ﷺ - درجة صاحب الخلق الحسن إل درجة الصائم الذي لا يفترعن ذلك . فقد روى الامام أحمد عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال :

«إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجات قائم الليل صائم النهار»
ويمتدح الرسول ﷺ المؤمنين بحسن الخلق فيقول (من رواية أبي هريرة) :

«إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائكم» (أبوداود والترمذي) .

وهذا ما روته أيضاً السيدة عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال :
«إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله» (رواه أحمد) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :
«كرم الرجل دينه ومروءته وعقله وحسبه خلقه» (رواه أحمد) .

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :
«من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله فقد استكمل الإيمان ،
وإن أفضلكم أحسنكم أخلاقاً وإن من الإيمان : حسن الخلق» (رواه أحمد وأبوداود والترمذي) .

وهذه الصفات التي يعددها الرسول ﷺ تدخل في شمول حسن الخلق الذي يدعو إليه ﷺ ، وبخاصة عندما يضمّن الحديث - بعد تعداد تلك الصفات - قوله : «وإن أفضلكم أحسنكم أخلاقاً» .

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

«إن أثقل شيء يوضع في ميزان المؤمنين يوم القيامة خلق حسن .
وإن الله يبغض الفاحش البذي» (رواه أحمد).

وعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :
«إن أحبكم إليّ وأقربكم مني في الآخرة أحاسنكم أخلاقاً، وإن
أبغضكم إليّ وأبعدكم مني في الآخرة أسوأكم أخلاقاً الثرثارون المتفيهقون
المتشددون»

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :
«إن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء
بالحسن ، إن الخبيث لا يمحو الخبيث» (رواه أحمد).

وإنني أردت من الاستشهاد بما تقدم أن أشيد بهذه الدعوة الكريمة
التي كان مثلها الأعلى محمد ﷺ ، وأن محاسن الأخلاق وفضائل الأعمال
لا تكون إلا بمن أخذ نفسه بهذه الصفات الكريمة التي حض عليها
المصطفى صلوات الله وسلامه عليه .

إن الصبر على المسيء ثم العفو عنه - عند المقدرة - وبعد ذلك
الإحسان إليه ، هي من هذه الصفات التي تميز بها الرسول ﷺ ، والتي
أتت أكلها في إقبال أعدائه ﷺ على الدخول في دين الله أفواجا .

وإن الأمثلة التي أقدمها عن أصحاب الفضل ، وعن الصفات
التي يتميز بها أصحاب الفضل ، وعن مسارعتهم في الخيرات ، لخير دليل
على أن هذه الشريعة ، كما تدعو إلى الأخذ بالعدل ، فإنها دعت إلى
الزيادة عليه ، وهي الأخذ بالفضل .

وسبحان القائل في محكم تنزيله : ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع
بالتّي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . وما يلقاها إلا
الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ (سورة فصلت ٣٤-٣٥) .

الفصل الأول :

من مواقف أهل الفضل

- ١- موقف يوسف عليه السلام .
- ٢- ماترون أنيَّ فاعل بكم .
- ٣- ألا تحبّون أن يغفر الله لكم؟

موقف يوسف عليه السلام من إخوته

إن موقف يوسف عليه السلام من إخوته هو من أبرز المواقف التي يتجلى فيها الفضل بالصفح والترفع عن المقابلة بالمثل لمن أساءوا إليه إساءة لم يكن فيها تقابل ولا تكافؤ ولا مبرر سوى الحقد والحسد، ومن ثم الكيد الذي دفع بإخوة يوسف إلى أن يتخلصوا منه، وهو الطفل البريء الذي لا حول له ولا قوة، أمام جبروت إخوته وإجماعهم على التخلص منه بأي شكل من الأشكال .

وقد قال محمد بن اسحاق بن يسار في هذا الصدد: (١)

«لقد اجتمعوا على أمر عظيم من قطيعة الرحم وعقوق الوالد وقلة الرأفة بالصغير، الذي لا ذنب له، وبالكبير الفاني ذي الحق والحرمة والفصل، وخطره عند الله، مع حق الوالد على ولده ليفرقوا بينه وبين أبيه وحبيبه على كبر سنه ورقة عظمه مع مكانه من الله، ممن أحبه طفلاً صغيراً، وبين ابنه على ضعف قوته وصغر سنه وحاجته إلى لطف والده وسكونه إليه . . .»

إن هذا التصرف من إخوة يوسف أملاه عدم رضاهم عن محبة أبيهم لأخيهم الصغير يوسف ﴿إذ قالوا ليوسف أحبُّ إلى أبينا منا ونحن

(١) من كتاب تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٤٧٠ .

عصبة إن أبانا لفي ضلال مبين . اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين قال قائل منهم : لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴿٩ / ٨﴾ .

وهكذا تم إبعاد الطفل يوسف عن أبيه بإلقاءه في قعر إحدى الآبار دون أن يعلموا أنهم بفعلهم هذا قد فتحوا له طريقاً - قدرها الله له - ليتمكن في الأرض ، ويسعى بعد ذلك إخوة يوسف إليه : وقبل التعرف عليه ، طلبوا للميرة من عنده وما هم في حاجة إليه ، فيكرمهم يوسف غاية الإكرام ويعيد إليهم أثمان ما أخذوه من بضاعة ، أي أنه لم يقابلهم بالسوء وقد أصبحوا تحت سلطانه ، وإنما أراد أن يضم شقيقه إليه ومن ثم يعرفهم على شخصه وبعد ذلك يكلفهم بأن يأتوا بباقي أهلهم أجمعين .

ولما جاءوه في ثالث مرة ، وقد أخذ منهم الجهد والضيق وقلة الطعام ، وجد أنه قد آن الأوان ليكشف لهم عن نفسه :

﴿ قال : هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون ؟ قالوا : أئنا لك لآنت يوسف ؟ قال : أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ (٩٠ / ٨٩) .

وعند ذلك أقروا بأنهم أساءوا إليه وأخطأوا في حقه وأقسموا بالله أن الله قد فضله عليهم :

﴿ قالوا : تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين ﴾ (٩١) .

فما كان جواب يوسف عليه السلام بعد اعتراف إخوته بخطئهم في حقه إلا أن :

﴿قال: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين﴾ (٩٢).

إن هذا هو الفضل الذي واجه به يوسف إخوته، على الرغم مما ارتكبه في حقه، فلا مجال إلى لومهم أو إلى إعادة تذكيرهم أوتبكيتهما بما سبق منهم إليه.

وإننا نجد هذا التسامي في الخلق من يوسف عليه السلام في أن لا يصدر عنه في مواجهتهم ما يسيء إليهم ولو تلميحاً، لذلك نجده، عندما يجتمع شمله بأهله أجمعين، يجعل ما حصل بينه وبين إخوته من عمل الشيطان، فيقول عليه السلام:

﴿يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن وجاء بكم من البدون من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي إن ربي لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم﴾ (١٠٠).

ويلاحظ أن يوسف عليه السلام قال: ﴿إذ أخرجني من السجن﴾ ولم يقل: ﴿إذ أخرجني من الحب﴾ لكي لا يجرح شعور إخوته بتذكيرهم بفعلتهم بعد أن أخطروهم بالصفح وطلب المغفرة لهم.

كما أن قوله: ﴿من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي﴾ يجعل من نفسه طرفاً في النزاع، وكأنه كان خصماً لهم ولم يكن ضحية لهم ليخفف عنهم أثر وقع هذه الذكرى الأليمة.

إن هذا الأدب النبوي، وهذا الترفع بالأخلاق مع من كاد له وأساء إليه هو ما ترمي إليه قصة يوسف - مع ما ترمي إليه من توجيهات وعبر أخرى -.

ومن هذا التوجيه السديد يتبين لنا أن عاقبة الصبر والتخلق بهذه الأخلاق الحميدة تكون حميدة وتعطي خير النتائج.

وهذا ما سيمر معنا نظيره في موقف رسولنا محمد عليه الصلاة والسلام من قومه يوم فتح مكة.

٢- ما ترون أني فاعل بكم؟

إن موقف قريش من رسول الله ﷺ - قبل إسلامهم - وهو يبلغهم رسالات ربه ، موقف المعادي للدعوة والداعية ، فنالوا منه ومن أصحابه ما جعله يقترح على من آمن معه أن يهاجر ، من شاء منهم ، إلى الحبشة ، لأن فيها ملكاً لا يظلم أحد عنده حتى يجعل الله لهم فرجاً ومخرجاً مما هم فيه . .

ولما رأت قريش أن الإسلام يفشو ويزيد ، وأن من أسلم من أبنائهم ونسائهم لا يردهم عن دينهم شيء ، من قتل أو تعذيب ، ائتمروا في أن يكتبوا بينهم كتاباً يتعاقدون فيه على مقاطعة كل من يناصر الرسول ﷺ بأن لا ينكحوا إليهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم شيئاً ، فكتبوا بذلك صحيفة وتعاهدوا على ذلك ، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة تأكيداً لذلك الأمر على أنفسهم . . فلما فعلت قريش ذلك انحازت بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب فدخلوا معه في شعبه ، فأقاموا على ذلك ثلاث سنين حتى جهدوا ، لا يصل إلى أحد منهم شيء إلا سراً . . ثم قام في نقض الصحيفة نفر من قريش ساءهم ما آلت إليه حال المسلمين . .

وبعد خروجهم من الشعب بقليل توفيت السيدة خديجة رضي الله عنها ، ثم توفي أبوطالب ، فعظمت المصيبة على رسول الله ﷺ بموتها فقال رسول الله ﷺ : «مانالت قريش مني شيئاً أكرهه حتى مات أبوطالب» .

فلما اشتد الأمر عليه بعد موت أبي طالب خرج ومعه زيد بن حارثة متوجهاً إلى ثقيف في الطائف يلتمس منهم النصر والتأييد، ولكنهم قابلهو بأسوأ مما كان يلقاه في مكة، وأغروا به سفهاءهم، فاجتمعوا إليه وأجأوه إلى حائط (بستان)، فجلس إلى ظل شجرة عنب وتوجه إلى ربه بدعائه المشهور:

«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت ربُّ المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أو إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك عليَّ غضبٌ فلا أبالي ولكن عافيتك هي أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل بي سخطك...» .

وبعد أن آمن به نفر من قبيلتي الأوس والخزرج، وتمكن الإيوان من قلوب أكثر أهل يثرب، أمر النبي أصحابه بالهجرة إليهم... لأنه يئس من إيوان قريش به، وهو في مكة، كما يئس من تركهم له ليلبع رسالات ربه... .

فلما رأت قريش هجرة أكثر من آمن بمحمد عليه الصلاة والسلام اجتمعت في دار الندوة، فقال بعضهم لبعض: إن هذا الرجل قد كان من أمره ما كان، وما نأمنه على الوثوب علينا بمن اتبعه فأجمعوا فيه رأياً... .

فقال أبو جهل: أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى نسيباً ويعطى كل فتى منهم سيفاً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد فيقتلونه، فإذا فعلوا ذلك تفرق دمه في القبائل كلها فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم

جميعاً ورضوا منا بالعقل (الدية)، فوافقوه على رأيه، ولكن الله سبحانه أنقذ نبيه من تأمرهم وكيدهم، ونجا منهم، ثم هاجر إلى المدينة صحبة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وأبقى في فراشه - تمويهاً على المتربصين به - على بن أبي طالب . .

ولما وصل إلى المدينة واستقر بها، لم ينقطع عدوان قريش ومتابعة تعذيبها لمن بقي من المؤمنين . . فحاربوه وحاربهم، وألبوا عليه القبائل فلم ينالوا منه شيئاً . . على الرغم مما أصابه في غزوة أحد، وما أصيب به من مقتل عمه حمزة رضي الله عنه، وما شاهده من المثلة في قتل المسلمين . . ومع هذا كله، فقد كان حريصاً على الإبقاء على قريش . . لذلك كان أميل إلى قبول الفداء بالنسبة للأسرى الذين يقعون تحت يده .

ولما كتب الله له النصر وتمكن من قريش عند دخوله مكة ظافراً، وقف على باب الكعبة وقال : لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ثم قال : يا معشر قريش ماترون أني فاعل بكم؟

قالوا : خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم .

قال : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين، اذهبوا فأنتم الطلقاء . . فعفا عنهم بعد ما أمكنه الله منهم .

إن هذا الموقف الذي وقفه الرسول ﷺ من قومه الذين آذوه في نفسه، وفي أهله، وفي عمه، وفيمن آمن معه، والذين كانوا حريصين على قتله والتخلص منه . . هو من مواقف الفضل التي وقفها الرسول ﷺ في معظم مجابهته لهم، وهذا الموقف كان أعظمها، لأنه ختمت به

الخصومة الشرسة مع قريش . .

إن هذا الموقف وأمثاله الذي وقفه رسول الله ﷺ مع قريش أملاه عليه وصف ربه له بقوله في سورة التوبة :

﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ (١٢٨)

وقد كان من قبل أيضاً حريصاً على إسلامهم ، وكان يصعب عليه انصرافهم عن هذا الدين وصدودهم عنه ، فخاطبه ربه بقوله في سورة الكهف :

﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً؟﴾ (الآية ٦)

إن هذه الأخلاق السامية الكريمة هي التي جعلت من هؤلاء الطلقاء ، بعد أن دخلوا في الإسلام خير من يحمل الدعوة إلى الله ، فباعوا أنفسهم وأموالهم في سبيل الله ، فكان على أيديهم ، وأيدي من سبقهم بالإيمان ، انتشار دين الله في الأرض .

هذا هو التوجيه السديد من الله لعباده المؤمنين في أن يعفوا ويصفحوا عن أساء إليهم ، لتكون عاقبة ذلك ما يحمدون عليه ، فيستحقون بذلك مغفرة من الله ورحمة .

وصدق الله العظيم :

﴿وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ (سورة النور الآية ٢٢).

٣- ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟

إن هذه الآية الكريمة نزلت على التحقيق في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حين حلف أن لا ينفع (مسطح بن أثاثة) بنافعة أبداً، بعد ما قال مسطح في السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ما قال في حادثة الإفك التي اختلقها المنافق الكبير (عبدالله بن أبي بن سلول) وجاراه فيها بعض المسلمين منهم مسطح المذكور.

ومسطح هذا هو ابن خالة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان مسكيناً لا مال له، إلا ما ينفق عليه أبو بكر رضي الله عنه، وكان من المهاجرين في سبيل الله، وقد زلق زلقة تاب الله عليه منها وضرب عليها الحد.

وكان الصديق رضي الله عنه مشهوراً بالمعروف، له الفضل والأيادي على الأقارب، وعلى الأجانب، فلما نزلت هذه الآية:

﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله، وليعفووا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم﴾ (الآية ٢٢ من سورة النور).

عند ذلك قال الصديق: بلى والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا، ثم أرجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة، وقال والله لا أنزعها منه أبداً^(١) إن هذا التوجيه الكريم من الله سبحانه لعباده الذين وسع الله

(١) انظر تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٧٧.

عليهم وآتاهم من فضله أن يعفوا وأن يصفحوا عمن أساء إليهم ، مهما بلغ جرم هذه الإساءة أو عظيم وقعها . . لأن آثار الصّبح والعفو بعد المقدرة ، هي الثمرة النافعة التي يجنيها المجتمع نتيجة لحسن تصرف العقلاء فيه ، فيكونون خيراً أسوة لغيرهم ، فينقلب المجتمع أسرة كبيرة متراسة يشد بعضه أزر بعض . . لا كيد فيه ولا حقد ، وإنما هو التسامح والتسامي إلى محاسن الأخلاق ومكارمها . .

هذه هي شريعة الفضل التي يندب الإسلام أتباعه إلى التخلق بها ، لما لها من آثار محبة وغاسلة لكل ما يحاول الشيطان إيقاعه بين أفراد المجتمع المسلم . . ولذلك ورد التذكير من رب العالمين بفضله على هذه الأمة المسلمة ، كما ورد التحذير من أتباع خطوات الشيطان وذلك في قوله سبحانه في سورة النور :

﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم . يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم﴾ . (الآيتان ٢١ / ٢٢) .

وإنه لا بد من الرجوع إلى حادثة الإفك كما هي مسجلة في مظانها في كُتُب التفسير والحديث للاطلاع عليها ومعرفة الأثر السيء الفظيع الذي خلفته في المجتمع الإسلامي خلال فترة شهر تقريباً حتى نزل الوحي ببراءة أم المؤمنين مما نسب إليها ظلماً وبهتاناً ، وما تضمنته الآيات الكريمة من توجيه رب العالمين لعباده المؤمنين بالمبادرة إلى العفو والصفح عمن أساء إليهم على الرغم من عظيم هذا الجرم ومن شناعته ، وكيف أنه مسّ أعظم إنسان في أهله ، كما أصاب أفضل إنسان بعد النبيين في ابنته ،

وهما رسول الله ﷺ في زوجته عائشة رضي الله عنها التي أنزل الله براءتها مما نسب إليها من فوق سبع سماوات ، وأبوبكر الصديق رضي الله عنه والدها ، الذي لم يعرف عنه وعن أسرته في الجاهلية إلا السلوك الحسن ، والأخلاق العالية ، فكيف بهم وقد شرفهم الله بالإسلام؟ .

إن التوجيه إلى العفو وإلى الصفح على الرغم من شناعة هذا الحادث ، يدل على مدى حرص هذه الشريعة على تحقيق العدل بتطبيقه للعقوبة على من يستحقها ، وعلى النذب إلى الفضل بعد أن انكشفت الأمور وتبين للناس أن ما أشيع بينهم ما هو إلا إفك مبین .

الفصل الثاني :

من أبواب الفضل

- ١- حسن قضاء الدين .
- ٢- التجاوز عن المعسر .
- ٣- حسن الخلق .
- ٤- الذين يدروون بالحسنة السيئة .

١- حسن قضاء الدين

إن احتياج الناس بعضهم إلى بعض أمر وارد، ومن أنواع الحاجة افتقار بعضهم إلى المال لقضاء بعض ما يلزمه، من إطعام أفراد أسرته، أو كسوتهم أو تطيبهم، أو الرغبة في تزويج أحد منهم . . إلى غير ذلك من الأمور التي تتطلب منه الإنفاق على نفسه أو على من تجب عليه نفقتهم، وليس لديه مال يكفيه لتغطية هذه الحاجة . .

وقد أباح الإسلام التداين ولم يحرمه، لقوله ﷺ:

«من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدّى الله عنه، ومن أخذ يريد إتلافها أتلفه الله» (رواه الامام البخاري).

وكان عليه الصلاة والسلام يستدين كما سيمر معنا من أحاديث .

غير أنه ﷺ شدد في وجوب وفاء الدين لقوله:

«نفس المؤمن معلقة بدينه حتى يقضى عنه» (رواه الأئمة أحمد

والترمذي وابن ماجه).

وتروي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان

يدعو في الصلاة:

«اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم، فقال قائل: ما أكثر ما

تستعيذ من المغرم؟ فقال: إن الرجل إذا غرم حدث فكذب ووعد

فأخلف». (أخرجه الامام البخاري).

وعن ابن قتادة الأنصاري رضي الله عنه قال :

- جاء رجل إلى رسول الله فقال : يا رسول الله ، أرايت إن قتل في سبيل الله صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر ، يكفر الله عني خطاياي؟ فقال رسول الله ﷺ : «نعم . فلما أدبر ناداه أو أمر فنودي فقال له رسول الله ﷺ : كيف قلت؟ ، فأعاد عليه قوله ، فقال النبي ﷺ : نعم ، إلا الدّين . كذلك قال جبريل .» (أخرجه الامام مسلم)

وعن محمد بن جحش أنه قال :

- كنا جلوساً في موضع الجنائز مع رسول الله ﷺ ، فرفع رأسه في السماء ، ثم وضع راحته على جبهته فقال : «سبحان الله ماذا أنزل من التشديد؟ فسكتنا وفرقنا ، فلما كان الغد سألته : يا رسول الله ما هذا التشديد الذي نزل؟ قال : في الدّين ، والذي نفسي بيده لو أن رجلاً قتل في سبيل الله ثم أحيي ، ثم قتل ثم أحيي ، ثم قتل وعليه دين ، ما دخل الجنة حتى يُقضى عنه». (أخرجه النسائي وصححه الحاكم).

وقد جعل التشريع الإسلامي ثواب القرض أكثر من ثواب الصدقة لما ورد في قول الرسول ﷺ :

- «رأيت ليلة أسري بي على باب الجنة مكتوباً : الصدقة بعشر أمثالها والقرض بثمانية عشر ، فقلت : يا جبريل ، ما بال القرض أفضل من الصدقة؟

قال : لأن السائل يسأل وعنده ، والمستقرض لا يستقرض إلاّ من حاجة». (رواه ابن ماجة).

وأن من استقرض شيئاً فردّه وأحسن ، أو أكثر من غير شرط ، كان محسناً . لما رواه أبو رافع مولى رسول الله ﷺ أنه قال :

- «استسلف رسول الله ﷺ بكراً، فجاءته إبل الصدقة، قال :
أبورافع فأمرني رسول الله ﷺ أن أقضي الرجل بكّره، فقلت : لم أجد في
الإبل إلا جملاً خياراً رباعياً، فقال رسول الله ﷺ : أعطه إياه، فإن أحسن
الناس أحسنهم قضاء» . (رواه الامام البخاري) .
أما إذا جرى الشرط في القرض أن يرد المدين أكثر من دينه أو أفضل
فهو حرام .

ويروى عن عبدالله بن سلام رضي الله عنه أنه قال لأبي بردة : «إنك
بأرض الربا فيها فاش، فإذا كان لك على رجل حق فأهدي لك حمل
تين أو حمل شعير أو حمل قَت، فلا تأخذه فإنه ربا» (أخرجه الامام
البخاري في فضائل الأنصار) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً تقاضى رسول الله ﷺ فأغلظ
له، فهمّ به أصحابه، فقال : «دعوه فإن لصاحب الحق مقالا، واشتروا
له بعيراً فأعطوه إياه . قالوا : لانجد إلا أفضل من سنه . قال : اشتروه
فأعطوه إياه فإن خيركم أحسنكم قضاء» (أخرجه الامام البخاري) .

وفي رواية أخرى عن أبي هريرة رضي الله عنه :
أن رجلاً أتى النبي ﷺ يتقاضاه بعيراً، فقال رسول الله ﷺ
«أعطوه، فقالوا : مانجد إلا سنأ أفضل من سنه . فقال الرجل : أوفيتني
أوفاك الله، فقال رسول الله ﷺ : أعطوه، فإن من خيار الناس أحسنهم
قضاء» . (رواه الامام البخاري) .

وعن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال :
«أتيت النبي ﷺ وهو في المسجد ضحى، فقال : صل ركعتين،
وكان لي عليه دين فقضاني وزادني» .

فمن هذه الأحاديث يتبين لنا أن المرغوب فيه أو المندوب إليه هو
حسن قضاء الدين ، أي جواز الوفاء بما هو أفضل ، إذا لم يكن بين
المتعاقدين شرط يوجب ذلك ، فيحرم عندئذ .

٢- التجاوز عن المعسر

كانت العرب في جاهليتها تبيع الربا في التعامل ، ولا تجد حرجاً من أن يتضاعف الدين على المدين مادام معسراً أو عاجزاً عن الدفع . . فكان المدين إذا حلَّ أجل دينه يقول له الدائن : أتقضي أم تربي؟ فيضطر المدين العاجز عن الدفع أن يزيد في مقدار دينه ليصبر الدائن عليه وقتاً آخر، وهكذا . . فحرم الله سبحانه ذلك وشدّد في التحريم وألذّر من يستمر عليه بقوله في سورة البقرة :

﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تَبَتُّمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ (الآية ٢٧٩).

وقد قال الفقهاء في ذلك إنه من كان مقيماً على الربا لا ينزع عنه ، كان حقاً على إمام المسلمين أن يستتيبه فإن نزع وإلا ضرب عنقه . . ويروي عنه ﷺ أنه خطب في حجة الوداع فقال :

﴿أَلَا إِنَّ كُلَّ رِبَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ عَنْكُمْ كُلِّهِ ، لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ وأول ربا موضوع ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله .

ثم يقول الله سبحانه بعد تلك الآية مباشرة :
﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (الآية ٢٨٠)

فهذا أمر من الله سبحانه في إنظار المعسر الذي لا يجد وفاء، وإلزام لدائنه بالصبر عليه، وهو من العدل الذي حرص التشريع الإسلامي على إقراره، لأن الدائن معلق في ذمة مدينه، وليس عليه إلا أن يكون لديه مال فيوفيه حقه منه. علماً أن (مطل الغني ظلم) «متفق عليه» وأن «تسويق الواجد يحل عرضه وعقوبته». بمعنى أن الذي لديه وفاء دينه ويسوف في ذلك أو يمتنع فإنه ظالم يحل لدائنه أن يقاضيه وأن ينال منه بالقول من أنه يأكل أموال الناس بالباطل، إلى غير ذلك من النعوت التي يستحقها مادام ممتنعاً عن وفاء دينه وهو قادر على ذلك.

أما ما كان عليه عمل أهل الجاهلية من أن يبيع الدائن مدينه فقد حرمه الإسلام وألزم المدين دينه متى ما توافر لديه منه شيء. وشدد الإسلام في أمر الدين وألزم بوفائه دون إبطاء، لقوله ﷺ بهذا الصدد إنه يغفر للشهيد كل شيء إلا الدين.

كما كان عليه الصلاة والسلام عندما يؤتى بجنازة ليصلي عليها، فيسأل: هل عليه دين؟، فإن قيل: عليه دين، قال: صلوا على صاحبكم، عندها قد يتقدم أحدهم فيقول: دينه على يارسول الله، فيصلي عليه.

وهذا كله تشديداً في أمر الدين وحضاً على وجوب إبراء الذمة منه. ومن هنا نستطيع أن نقول: إن إنظار المعسر إلى ميسرة عدل وواجب.

أما قوله سبحانه: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فهذا فضل مستحب مندوب إليه، من فعله أثابه الله ورفع درجته، ومن تركه

لم يعاقبه .

وقد وردت أحاديث كثيرة تحض على التيسير على المعسر أو التجاوز عنه ، ومنها ما رواه الامام البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال :

- « كان رجل يداين الناس فكان يقول لفتاه إذا جئت معسراً فتجاوز عنه لعل الله يتجاوز عنا ، فلقي الله فتجاوز عنه » .

ويروي الامام أحمد في مسنده عن حذيفة رضي الله عنه :

- « أن رجلاً أتى الله عزّ وجل به فقال : ماذا عملت في الدنيا؟ فقال الرجل : ما عملت من مثقال ذرة من خير أرجوك بها ، فقالها ثلاثاً ، وقال في الثالثة : أي رب ، كنت أعطيتني فضلاً من المال في الدنيا فكنت أبايع الناس ، وكان من خلقي التجاوز ، فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر ، فقال الله عز وجل : نحن أولى بذلك منك تجاوزوا عن عبيدي فغفر له » (رواه أحمد) .

وعن أبي اليسر قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

- « من أنظر معسراً ، أو وضع عنه أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله » (رواه الامام مسلم) . وعن أبي قتادة قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

- « من نفّس عن غريمه أو محاً عنه كان في ظل العرش يوم القيامة » . (رواه أحمد والدارمي) .

وهكذا فإن التصديق على المعسر هو من الفضل الذي يحض عليه التشريع الإسلامي لما له من آثار طيبة على التعامل بين الناس .

٣- حسن الخلق

امتدح الإسلام حسن الخلق، فقال رسول الله ﷺ:

- «إن خير ما أعطي الناس خلقٌ حسن» (رواه الامام أحمد).

«كما أن أفضل شيء في الميزان الخلق الحسن» (رواه الامام أحمد).

وقد سئل رسول الله ﷺ:

- أي الإيمان أفضل؟ قال: «خلق حسن» (رواه الامام أحمد).

وقال عليه الصلاة والسلام: «إن خياركم أحاسنكم أخلاقاً» (رواه

الامام البخاري).

إلى آخر ما جاء في هذا المعني من أحاديث، وإن أعظم وسام حمله

إنسان قول رب العالمين لرسول الله ﷺ:

﴿وإنك لعلی خلق عظیم﴾ (سورة القلم الآية ٤).

وان امتداح الإسلام لحسن الخلق يؤكد على ضرورة تخلق الفرد

المسلم بما يرتفع به إلى هذه المرتبة الخيرية. . لأن الذي يتخلق بالأخلاق

الحسنة يرتفع بنفسه عن الصغائر، ويكون أقرب إلى التسامح والعفو،

وقد امتدح الله سبحانه الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون. ﴿الذين يجتنبون

كبائر الاثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون﴾

أي أن سجيّتهم تقتضي الصفح والعفو عن الناس وليس الانتقام

منهم. . وان الشديّد ليس ذاك الذي يقوى على الناس فيصرعهم، وإنما

الذي يملك نفسه عند الغضب. . ويتجاوز عن الإساءة ويضيف

عليها ما يقدر عليه من الاحسان ، مصداقاً لقوله ﷺ :

« ليس الشديد بالصرعة ، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب » (متفق عليه) .

وقد وصف الله عباده المتقين بأنهم أولئك :

﴿الذين ينفقون في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾ (آل عمران ١٣٤) .

فهؤلاء المتقون الذين يسارعون إلى مغفرة من ربهم وجنة عرضها السماوات والأرض ، ينفقون في الشدة والرخاء ، والمنشط والمكره ، والصحة والمرض ، وفي جميع الأحوال ، سرّاً وعلانية ، لا يشغلهم شاغل عن طاعة الله والالتزام بأوامره والإحسان إلى خلقه بأنواع البر ، وأنهم إذا ما أخذهم الغيظ وثار بهم كظموه وأخفوا بوادره فلم ينفعلوا ، أي لم يتركوا للشيطان عليهم سبيلاً ، بل أرغموا أنفسه فسارعوا بالعفو عمن أساء إليهم ، لأن من كظم غيظاً وهو قادر على إنفاذه ، ملأ الله جوفه أمناً وإيماناً .

وإضافة إلى حبس النفس عن الانتقام ، فإنهم يعفون عمن ظلمهم في أنفسهم ، فلا تبقى في أنفسهم موجدة على أحد . . وهذا من أكمل الأحوال ، ولهذا قال رب العالمين : ﴿والله يحب المحسنين﴾ ، فهذا من مقامات الإحسان ، أي من مقامات الفضل الذي يتحلى به أمثال هؤلاء المتقين .

وقد ورد في الحديث قوله ﷺ :

- «ثلاث أقسم عليهن :

- ما نقص مال من صدقة .
- وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً
- ومن تواضع لله رفعه . » (رواه الامام أحمد) .
- وعن أبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال :
- «من سره أن يشرف له البنيان وترفع له الدرجات فليعف عمن ظلمه ويعط من حرمه ويصل من قطعه» .
- وهذه جميعها من باب الفضل الذي امتازت به الشريعة الإسلامية السمحة .
- ومن مستلزمات الخلق الحسن ، أن لا يتفوه الإنسان إلا بالقول الحسن ، وأن لا يكون رده على من أساء إليه إلا بالإحسان إليه ، وهذا ماخصه عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله :
- «ما عاقبت من عصي الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه»
- وقد قيل : ما عوقب الأحق بمثل السكوت عنه .

٤- الذين يدروون بالحسنة السيئة

إن هذه الصفة التي يصف رب العالمين عباده المتقين بها لا تخرج عن كونها من مكارم الأخلاق التي يحض الإسلام على التخلق بها ، وهي من صفات الفضل التي اتصفت بها هذه الشريعة السمحاء .

يقول رب العالمين في سورة الرعد :

﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحَسَنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مِثْلَ الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ . أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يُوْفُونَ بَعْدَ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ . وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ . وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدِرُّونَ بَالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عِاقِبَةُ الدَّارِ . جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ (١٨-٢٤) .

إن هذه الصفات لا يتخلق بها إلا الذين استجابوا لربهم وأخذوا أنفسهم بالالتزام بأوامره اجتناباً ونهيّاً ، فهم ممّن أحسن لنفسه

وللآخرين ، وهؤلاء هم الذين يتحملون السيئة بصبر جميل ، ولا يردونها بمثلها ، وإنما يغضون عن السيئات ، ويقابلون المسيء إليهم بالحسنات ، أي أنهم يدفعون القبيح بالحسن ، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبراً واحتمالاً وصفحاً وعفوا ، فتقلب العداوة بفعلهم هذا إلى صداقة توفيقاً مع قوله تعالى في سورة فصلت : ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة . ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه وليٌ حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظٍ عظيم﴾ (٣٥-٣٤) .

ولهذا قال سبحانه عن هؤلاء السعداء المتصفين بهذه الصفات الحسنة ، نتيجة لاستجابتهم لربهم ، بأن لهم عقبى الدار . ثم فسّر ذلك بقوله : (جنات عدنٍ) يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب ، سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار .

إنها لأعظم بشرى وأعظم مكافأة يتلقاها هؤلاء الذين صبروا ابتغاء وجه ربهم . . . ويدروون بالحسنة السيئة .

هذه هي أخلاق أصحاب الفضل الذين يتجاوزون حدود العدل ولا يقفون عندها ، مادامت هنالك غاية أسمى وأنبى ، وهي الزيادة في الحسنى من ربهم ابتغاء مرضاته .

وأى عاقل متدبر في عاقبته لا يحرص على التخلق بهذه الأخلاق لينال هذه الدرجات العلا عند ربه ؟ .

إنها الشريعة الإسلامية التي أمرت أتباعها بتحقيق العدل ، ثم

ندبتهم إلى تحقيق الفضل لتكون عاقبتهم ما وعدهم الله سبحانه ، وإن وعده حق ، وهو أصدق القائلين .

ثم إن هذه الصفات لا تقتصر على أصحابها ، وإنما تتعداهم إلى من يتعاملون معهم ويلقون منهم هذه الساحة وهذه البشاشة مع سعة الصدر ورحابته .

إن هذه الأوصاف تنعكس على من يتعاملون معهم فيتأثرون بهم ، ويعاملون غيرهم بمثل هذه المعاملة فيعم الجميع البشر ، وينقلب المجتمع بأسره إلى ما أَرَادَهُ الله لهم من خير فيحققون وصف الله لأسلافهم :

﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس ﴾ (آل عمران ١١٠) .

وانظر إلى هذا التوجيه الكريم من الرسول ﷺ لمن جاءه يستفتيه في مقابلة السيئة بمثلها في حديث رواه الامام الترمذي عن مالك بن فضالة قال :

« قلت يا رسول الله : الرجل أمرُّ به فلا يقربني ولا يضيفني ، فيمر بي أفأجزيه ؟ قال : لا أفْرِه » .

ويروي الامام الترمذي عن أبي هريرة ما يفيد تجنب المقابلة بالمثل في قوله ﷺ :

« أَدِّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ أَتَمَّنَكَ وَلَا تَخُنْ مِنْ خَانَكَ » .

وما بعد هذا التوجيه الكريم من ارتفاع عن مجارة الفعل السيء ، من توجيه ، وهذا ماتدعو إليه الشريعة وترفع درجات من يأخذ به .

الفصل الثالث :

صدقة التطوع

الصدقة ما تصدقت به على الفقراء ، أو ما أعطيته في ذات الله للمحتاجين .

والصدقة مشتقة من الصدق ، أي أن تصدق في عطائك ، وأن يكون خالصاً لوجه الله تبارك وتعالى ، ليس فيه منة أو أذى .

ولذلك قال رب العالمين :

﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم يتبعون ما أنفقوا مناً ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم . يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى﴾ (الآيات ٢٦٢-٢٦٤ من سورة البقرة) .

والصدقة تعني أيضاً الزكاة المفروضة لقوله تعالى :

﴿إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم﴾ (سورة التوبة الآية ٦٠) .

والزكاة محددة المقدار ، وهي فريضة في مال المسلم متى زاد على النصاب ، أما الصدقة في أوسع سبل الإنفاق لأنه لا حدود لها ، وقد

تفوق حصيلة الزكاة عند كثير من المسلمين . لاعتقادهم ان هذه الفريضة لا مناص منها ، وهم مسؤولون عنها ومحاسبون عليها ولا تبرأ ذمة المكلف إلا بأدائها .

فالزكاة من أبواب العدل لتساوي فرضها في أموال المكلفين بنسبة ما يملكون وحسب أصناف هذه الأموال .

أما صدقة التطوع فهي الباب الواسع من أبواب الفضل الذي يمكن المسلم من المسارعة في الخيرات والميراث ، لقوله تعالى : ﴿ فاستبقوا الخيرات ﴾ (سورة المائدة الآية ٤٨) .

وقد كان المسلمون الأولون خير مثال للمؤمن الجواد الذي يؤتي ماله يتزكى وما لأحد عنده من نعمة تجزى إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى .

كما ان الله تبارك اسمه ، جعل المسارعة في الخيرات من صفات المؤمنين في قوله تعالى : ﴿ يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات ، وأولئك من الصالحين . وما يفعلوا من خير فلن يكفروه والله عليم بالمتقين ﴾ (سورة آل عمران ١١٤-١١٥) .

وهذه دعوة الله للأمم من قبل وردت في قوله تعالى في القرآن الكريم أكثر من مرة :

﴿ وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين ﴾ (سورة الأنبياء الآية ٧٣) .

وتجدر الإشارة إلى أن الدعوة إلى فعل الخيرات دعوة مستقلة عن إيتاء الزكاة ، لأن الزكاة فريضة محددة النسب في أموال المكلفين ، كما

سبق ذكره، أما فعل الخيرات فهي دعوة الله لعباده من لدن خلق آدم حتى بعثه رسولنا الكريم محمد عليه الصلاة والسلام، يقول الله تعالى : ﴿فاستجبنا له وهبنا له ينحي واصلحنا له زوجه إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين﴾ (سورة الأنبياء الآية ٩٠).

ويقول تبارك وتعالى :

﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون . والذين هم بآيات ربهم يؤمنون . والذين هم بربهم لا يشركون . والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلةٌ أنهم إلى ربهم راجعون . أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون . ولا تكلف نفساً إلا وسعها ولدينا كتاب ينطق بالحق وهم لا يظلمون﴾ (سورة المؤمنون الآيات ٥٧-٦٢).

وقد صنّف الله سبحانه عباده على ثلاث درجات، جعل أعلاها درجة السابق بالخيرات، وذلك في قوله جل وعلا :

﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير﴾ (سورة فاطر الآية ٣٢).

والصدقة، أي صدقة التطوع، يعتبرها الله سبحانه قرضاً له من عباده، وهو الغني عن العالمين، فضلاً منه ورحمة، وتشجيعاً منه لعباده على فعل الخير في هذه الحياة الدنيا، ليعود نفعها على الناس أجمعين، ومن جملتهم أولئك الذين يسارعون في الخيرات، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضاً حسناً وما تقدموا

لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً، واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴿ (سورة المزل الآية ٢٠) .

وهذا وإن كان قرضاً حسناً لله سبحانه من حيث القبول، فهو في الحقيقة خير يعود على المجتمع بأسره، لأن الخير يعم عند فعله، وكذلك الشريع عند فعله، وتقديم الخير هو لأنفسنا كما قال تعالى :

﴿فأتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . إن تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم والله شكور حلیم ﴾ (سورة التغابن الآيتان ١٦/١٧) .

ويقول عليه الصلاة والسلام : «إن الله يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيريها لأحدكم كما يري أحدكم مهره، حتى ان اللقمة لتصير مثل أحد» . (رواه الامام الترمذي) .

وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل :

﴿ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات وأن الله تواب رحيم ﴾ (سورة التوبة الآية ١٠٤) .

ويقول الرسول في حديث آخر :

«من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب - ولا يقبل الله إلا الطيب - فإن الله يتقبلها بيمينه ثم يريها لصاحبها كما يري أحدكم فلوّه حتى تكون مثل الجبل» (رواه الامام البخاري) (١) .
ويقول ايضاً :

«مثل البخيل والمتصدق كمثل رجلين عليهما جُتتان من حديد قد اضطرت أيديهما إلى ثدييهما وتراقبيهما، فجعل المتصدق كلما تصدق

(١) بعدل تمرة : أي بها يعادل وزنها ، الفلّو : المهر الصغير .

بصدقة انبسطت عنه ، وجعل البخيل كلما همّ بصدقة قلصت وأخذت كل حلقة بمكانها»^(١).

والخض على الإنفاق في سبيل الله أمر توسع فيه الإسلام فلم يترك مجالاً لعمل الخير إلا وشجع عليه ، ولو كان زهيداً ، وهذا الحديث التالي يصور لنا ذلك بدقة وشمول :

«عن جرير قال : كنا عند النبي ﷺ في صدر النهار ، فجاءه قوم حفاة عراة مجتايي النار»^(٢) ، عليهم العباء والصوف ، عامتهم من مضر ، قال : فرأيت وجه رسول الله ﷺ يتغير لما رأى بهم من الفاقة ، ثم قام فدخل فأمر ربلاً ، فأذن وأقام ثم خرج ، فصلّى ثم خطب ، فقال : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾ (النساء ١ إلى آخر الآية) . ﴿اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد﴾ (الحشر ١٨ إلى آخر الآية ، يتصدق الرجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بره ، من صاع تمره ، حتى قال : ولو بشق تمره . فجاء رجل من الأنصار بصرة قد كادت كفه تعجز عنها ، بل قد عجزت ، قال : ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من ثياب وطعام ، ورأيت وجه رسول الله ﷺ يتهلل كأنه مذهبة ، ثم قال :

«من سنّ في الإسلام سنة حسنة يُعمل بها من بعده كان له أجرها وأجر من عمل بها من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً ، ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة يُعمل بها من بعده ، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص شيئاً» (رواه الامام مسلم) .

(١) الجنة : من الحديد ، هي الدرع . قد اضطرت أيديها : حستها .

(٢) مجتايي النار : أي لابسو الأزر من صوف مخططة ، والنار : كل شملة مخططة من مآزر الاعراب .

الفصل الرابع:

من أبواب هذا الفصل :

- الوقف أو الصدقة الجارية :
- من الناحية الاقتصادية .
- من الناحية التعليمية .
- صلاح الفرد والمجتمع .
- بداية الوقف وانتشاره .
- شمول الوقف لمختلف وجوه البر .

الفصل الرابع :

الوقف أو الصدقة الجارية

إن من أبواب الفضل التي تفضل الصدقة الفورية الصدقة الجارية أو (الوقف)، لأن هذه الصدقة ذات أثر خير مستمر ما أحسن القائمون عليها الانتفاع بها واستثمارها .

وهي وإن كانت من أبواب الصدقات الخيرية، ولكنني أحببت إفرادها بالبحث، لأن لها مميزات خاصة بها يجدر بالقاريء الاطلاع عليها .

لقد حرص الإسلام منذ بداية عهده على فتح أبواب للخير، وحض على المسارعة فيها، ورغب في ذلك، وضمن للفاعلين الأجر العظيم عند الله، وأكد على أن الإنسان لا يخلد منه إلا عمله، لقوله ﷺ :

«يتبع الميت ثلاثة : فيرجع اثنان ويبقى واحد . . يتبعه أهله وماله وعمله ، فيرجع أهله وماله ويبقى عمله» (رواه الامام مسلم) .

وإن من عمله الذي لا ينقطع ثوابه : الصدقة الجارية . . مصداقاً لقول الرسول ﷺ :

«إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : صدقة جارية، أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له» (رواه الامام مسلم) .

وهذه الأمور الثلاثة تتناول حقائق اجتماعية لها تأثيرها المباشر على أفراد الأمة ، كما أن لها تأثيرها على مستقبلهم أيضاً .

فالصدقة الجارية هي نوع من أنواع الإنفاق الذي يدعو إليه الإسلام ويحض عليه ، غير أنها تمتاز عن الإنفاق الفوري ، بكونها مستمرة النفع ، باستمرار وجود عينها صالحة للاستثمار .

والإنفاق ، وهو طريق من طرق توزيع الثروة ، يعد من أبرز الأمور الاقتصادية ، وإن استمرار أجر الصدقة باستمرار جريانها في حياة الإنسان وبعد وفاته ، يشجع الفرد على الاستكثار منه . . وهذا مادفع بالسلف الصالح إلى المسارعة في حبس كثير من أموالهم ووقفها في وجوه البر والاحسان ، وكان ذلك أصل فكرة الوقف ومنطقها .

وإن استمرار جريان الصدقة ، فيه تخليد لذكر صاحبها وإحياء لاسمه . . وهذه ناحية نفسية ترتبط بحب الذات الغريزي . . ولا تتعارض مع الأصل الذي انبثقت عنه ، وهو التقرب إلى الله ابتغاء مرضاته .

وما الخير في طول الحياة إذا امرؤ مضى ثم لم تذكر بخير عواقبه
ويقول عليه الصلاة والسلام :

«من سنّ في الإسلام سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئاً . ومن سنّ في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيئاً» (رواه الامام مسلم) .

وثاني هذه الأعمال التي لا ينقطع نفعها ، وتعود على صاحبها بالأجر

المستمر، هو: العلم الذي ينتفع به . وهذا أمر ملموس ومتحقق ، لأن العلم هو ثمرة الجهد الذي بذله العلماء في تقريبه إلى الناس ، وهو التراث الخالد الذي ورثوه إياه ، والعلماء ورثة الأنبياء . . والعلم لا يأتي إلا بالتعلم والتعليم . . والتعلم لا بد له من معلم أو كتاب يرجع إليه ، وإن التراث العلمي الذي بين أيدينا يشهد لعلمائنا بهذا الفضل الكبير الذي خلد ذكركم ، وضمن لهم استمرار الأجر باستمرار الانتفاع من علمهم .

وإننا نجد الترابط بين العلم والصدقة الجارية في كثرة ما هو موقوف من العقارات على طلاب العلم وعلى أغراضه . . حتى إن كثيراً من العلماء وقفوا كتبهم وتآليفهم على طلبه العلم ابتغاء الأجر الدائم . . وإن كثيراً من الأغنياء اقتنوا الكتب ووقفوها ، ووقفوا عليها ما يضمن استمرار النفع بها .

وإن التاريخ الإسلامي مليء بالشواهد التي تشير إلى وقف مكتبات كاملة بموجوداتها جميعها ، مع توفير السكن والغذاء لطلاب العلم ، طوال إقامتهم فيها ، للاعتراف من منابعتها وكنوزها .

وأما الأمر الثالث ، وهو الولد الصالح الذي يدعو لوالديه ، فلا يقل أهمية عما سبقه ، لأن صلاح الفرد يؤدي إلى صلاح المجتمع ، ومن صلاح الفرد مسارعته في الخيرات والميراث ، والدعاء بالخير للوالدين ، لا يقتصر على شخص الولد الصالح ، وإنما يتعداه إلى كل من لمس صلاح هذا الولد ، وترحم على والديه اللذين أحسنا تربيته . . فتضاعف أجر الوالدين تبعاً لتضاعف الأثر الذي يتركه هذا الولد الصالح في مجتمعه حياً أو ميتاً .

ويحسن بنا ان نستعرض أثر هذه الأمور الثلاثة في المجتمع لأنها آثار

خير يخلفها الإنسان بعد وفاته .

من الناحية الاقتصادية :

إن هذه الأمور الثلاثة متماسكة متلازمة ، لأن السخاء بالمال يطهر النفس ويزكيها ، ويشجع الآخرين على عمل الخير تأسياً بمن سبقهم في هذا الطريق . . كما يكثر من السيولة النقدية بين الأيدي فتنتعش الحركة الاقتصادية ويعم الرخاء الجميع . . وتزدهر البلاد وتقوى . وهذه أمور ملموسة ، لأن قبض الأيدي عن الإنفاق يساعد على وقف السيولة النقدية ، فتنشأ الأزمات الاقتصادية وتتأثر الأمة بمجموعها من ذلك .

ولهذا نجد الإسلام يكثر من الحض على إنفاق المال ، ويحذر من إمساكه ، ويتوعد الكانزين بعذاب النار ، لما للإنفاق من آثار حميدة على الأمة أفراداً وجماعات . . وإن مال الانسان هو ما يقدمه بين يديه ، لأن ما يبقيه بعد وفاته هو مال وارثه . . لقوله ﷺ :

«أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا: يا رسول الله، ما منا من أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه . قال : فإن ماله ما قدم ، ومال وارثه ما آخر» .

من الناحية التعليمية :

إن العلم الذي ينتفع به ، هو الذي دعا إليه الإسلام ورفع به منزلة العلماء ، ولم يقصره على نوع محدد ، وإنما عرّفه بالنفع فقال : أو علم ينتفع به . . وهذا الإطلاق لا حدود له . . مادام يحقق نفعاً للأمة .

وهذه من مزايا الإسلام التي سبق بها دعاة العلم في العصور المتأخرة . . فكانت النهضة العلمية التي ظهرت على أيدي العلماء المسلمين في القرون الأولى للهجرة، نهضة إنسانية تقوم على النفع الذي هو هدف العلم وثمرته ، ولا تفرق بين شعب وآخر باعتبار ان الناس عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله .

كما كانت هذه النهضة مفتاح النهضات العلمية المتعاقبة ، اعترف بها منصفوهم ، وبقيت معالمها خالدة في الكنوز العلمية الموزعة في مكتبات العالم وفي الآثار العمرانية التي تشهد على ما توصلت إليه هذه الحضارة الإسلامية الإنسانية . . فإن قصر الخلف في استمرار حمل هذه الرسالة ، والنهوض بها إلى المستوى المنشود ، فإن هذا التقصير لا يمس تعاليم الإسلام بشيء ، لأنها تعاليم خالدة تكفل لمن يأخذ بها الارتفاع إلى أعلى مستوى يمكن ان تصل إليه جهود العلماء .

وقد كان العلم مقروناً بالبذل من العلماء أنفسهم ومن أولياء أمور الأمة وأثريائها . . وكانت المؤسسات العلمية تمول من عائدات الخيرات الموقوفة عليها ، ومن التبرعات الفردية . . أو من المخصصات الدائمة التي ترصدها الدولة لضمان حسن أداء رسالتها واستمرارها . .

وإن أثر العلم في المجتمع لا مجال لنكرانه . . ولهذا كانت الدعوة إلى التزود منه موجهة من الله سبحانه وتعالى إلى رسوله بقوله : ﴿وقل رب زدني علماً﴾ وهذه دعوة عامة وليست خاصة به ، ﷺ .

وإن انتشار العلم النافع بين أفراد الأمة ، والتزود منه ، يرتفعان بمستواها إلى المنزلة التي انطلقت منها بشهادة الله سبحانه في قوله الكريم : ﴿كتم خير أمة أخرجت للناس﴾ .

صلاح الفرد والمجتمع:

أما الولد الصالح، فهو الفرد المسلم الذي تحرص الأمة على تنشئته ليكون اللبنة المثلى في هيكل الأمة العام، وهو أمل كل والد في ان يكون ابنه كذلك، وهو دعوة مستمرة ونداء لا يتوقف، لكل مواطن يرغب في صلاح أمته، بأن يبدأ بصلاح نفسه ثم بمن يعول، لأن فاقده شيء لا يعطيه. . والولد الصالح هو استمرار وامتداد لأبويه. . فينتفعان بصلاحه، لأنه من آثارهما. . وإن صلاح الولد، هو صلاح للمجتمع، لأن الصالح لا يرضى بالفساد ولا يسكت عنه. . وإذا مات تعدد الصالحون، وكثروا في الأمة. ضمنت لنفسها استمرار الرفعة والازدهار. ومفهوم الصلاح في الإسلام، هو أن يكون الفرد نافعاً لأمته في الشيء الذي تخصص فيه وانصرف إليه، وبذلك تكسب الأمة عضواً نافعاً يدعو إلى الخير ويحققه بنفسه، ويتجنب الشر ولا يرضى به ويعمل على إزالته. . وقد جعل الله وراثته الأرض قصراً على عباده الصالحين فقال سبحانه:

﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾.

بداية الوقف وانتشاره :

ورد في كتب السيرة أن «مخريق» كان يهودياً، قاتل مع المسلمين في غزوة أحد، وفاء للعهد الذي أخذه رسول الله ﷺ على اليهود، وقد قال لهم «مخريق»: :

يا معشر يهود، لقد علمتم ان نصر محمد عليكم حق، فقالوا: ان

اليوم يوم سبت . فقال : لاسبت ، وأخذ سيفه وعدته وقال : إن قتلتم فإلالي لمحمد يصنع به ما يشاء ، ثم غدا فقاتل حتى قتل .

فقال رسول الله ، ﷺ : مخيريق خير يهود . ثم جعل أمواله أوقافاً . وكانت سبع حوائط . فعمّ نفعها ، بعد أن كان مقتصرأ على مالكها . وبذلك وضع الرسول ﷺ أول لبنة في هيكل هذه المؤسسة الخيرية الاقتصادية العامة ، التي أطلق عليها بعد اسم الوقف .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان أبوطلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل ، وكان أحب شيء إليه من أمواله «بيرحاء» ، وكانت مستقبله المسجد وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب .

قال أنس : فلما أنزلت هذه الآية : ﴿لن تنالوا البرحتى تنفقوا مما تحبون﴾ ، قام أبوطلحة إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن الله تبارك وتعالى يقول : لن تنالوا البرحتى تنفقوا مما تحبون ، وإن أحب أموالي إليّ «بيرحاء» وأنها صدقة لله أرجو بها برها وذخرها عند الله ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله . قال : فقال النبي ﷺ : «بخ ، بخ ، ذاك مال رابح ، ذاك مال رابح ، وقد سمعت ما قلت ، وإني أرى أن تجعلها في الأقربين . فقال أبوطلحة : أفعل يا رسول الله ، فقسمها أبوطلحة في أقاربه وبني عمه . » (رواه الامام البخاري) .

وكان هذا أول وقف أهلي ، نتج عن دعوة الله عباده المؤمنين إلى المسارعة إلى الإنفاق من أطايب أموالهم ، أي مما يحبون .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال :

أصاب عمر أرضاً بخير ، فأتى النبي ، ﷺ يستأمره فيها ، فقال :

يارسول الله إني اصبت أرضاً بخير لم أصب مالا قط هو أنفس عندي منه ، فما تأمرني ؟

قال : «إن شئت حبست أصلها وتصدق بها . قال : قال : فتصدق بها عمر : إنه لا يباع أصلها ولا يبتاع ولا يورث ولا يوهب . قال : فتصدق بها عمر في الفقراء وفي القريبى وفي الرقاب وابن السبيل وفي سبيل الله ، والضيف ، ولا جناح على من وليها أن يأكل منها بالمعروف أو يطعم صديقاً غير متمول فيه . (متفق عليه) .

قال الامام الترمذي : العمل على هذا الحديث عند أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ ، وغيرهم ، لانعلم بين أحد من المتقدمين منهم في ذلك اختلافاً .

ووقف عثمان بن عفان رضي الله عنه بثر رومة في المدينة ، وكان لا يشرب منها أحد إلا بئمن ، فابتاعها وجعلها للغني والفقير وابن السبيل ، وهي كائنة شمال مسجد القبلتين بوادي العقيق ، وماؤها عذب لطيف في غاية العذوبة واللطافة ، تسميها العامة بئر الجنة ، لترتب دخول الجنة لعثمان على شرائها ، ويروى أن رسول الله ﷺ قدم المدينة وليس فيها ماء يستعذب غير بئر رومة ، فقال رسول الله ﷺ : من يشتري بئر رومة فيجعل دلوه مع دلاء المسلمين بخير له منها في الجنة ، فاشتراها عثمان وجعلها للمسلمين . (تحفة الأحوذى ج ١٠ ص ١٩٠) .

وقد استدل من هذا الحديث على جواز وقف السقايا وخروج الموقوف عن ملك الواقف ، حيث جعل ملكه فيها مع غيره سواء .

ثم توالى أوقاف الصحابة والتابعين ، وتابعيهم بإحسان إلى يومنا

هذا .

وقد كان من الأوقاف ما هو مخصص للعاجزين عن الحج ، فيعطى لمن يحج عن الرجل منهم كفايته . وما هو مخصص لتجهيز البنات إلى أزواجهن ، وهن اللواتي لا قدرة لأهلهن على تجهيزهن . وما هو مخصص لفكاك الأسارى من المسلمين ، ولأبناء السبيل المنقطعين ، يعطون منها ما يأكلون ، ويلبسون ويتزودون حتى الوصول إلى بلادهم . ومنها ما هو مخصص للحيوانات التي تحلى عنها أصحابها ، لقلة نفعها أو لعجزها عن الانتفاع منها ، تعيش في مراعي وأماكن تجد فيها العلف والماء إلى أن تموت ، ومنها ما هو مخصص لشراء بدل الأواني التي كسرت بأيدي الخدم ، فيحصلون على بدلها ويعودون به إلى أسيادهم لاتقاء غضبهم عليهم . . إلى غير ذلك من أعمال البر والخير . .

شمول الوقف لمختلف وجوه البر:

قلنا إن الصدقة الجارية تمتاز عن الإنفاق الفوري ، بأنها مستمرة النفع ، لاستمرار وجود عينها صالحة للاستثمار . . وأنها ذات أثر اقتصادي لاستمرار نفعها المادي مما هو محبوس لمصلحتها .

ولهذا تسابق الخيرون إلى عمران المساجد ومدّها بما يصلح لها من فرش ومياه وسكن للقائمين عليها . . ووقف دور ومحلات وأراض زراعية صالحة للاستثمار ليعود ريعها على استمرار صلاح عينها ، ولتغطية نفقات المتفرغين لها ، وما هي بحاجة إليه من إنارة وفرش ونظافة وغير ذلك . .

وان معظم المساجد في العالم الإسلامي هي وقف أو موقوف عليها ،

وأكثرها أوقافاً هي المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها : المسجد الحرام ، والمسجد النبوي ، والمسجد الأقصى .

وإن من أكبر الأوقاف في العالم الإسلامي كانت أوقاف الحرمين الشريفين ، كما غطت الأوقاف كثيراً من دور العلم ومكتباتها ، والعاملين فيها ، كذلك شملت الناحية الصحية ، فأشادوا المستشفيات التي كانت تعرف باسم «البيمارستانات» ودور العجزة والمنقطعين وأبناء السبيل .

الفصل الخامس :

من أبواب هذا الفصل :

- **المعاملة مع الأعداء .**
- ١- **العدالة مع الأعداء .**
- ٢- **التجاوز عن إساءات أعداء الله.**

الفصل الخامس :

المعاملة مع الأعداء،

١- العدالة مع الأعداء،

العدالة المطلوبة، - كما سبق ذكره- مع النفس ومع الآخرين،
ومن هؤلاء: الأعداء الذين يناصبون المسلمين العداء ويتربصون بهم
الدوائر، والذين لا يرقبون في المسلمين إلاّ ولاذمة. (الإل: القرابة.
والذمة: العهد).

وقد أمر الله سبحانه أن تكون معاملة المسلمين لأعدائهم معاملتهم
لأنفسهم، أي أن لا يخرجوا عن حدود العدالة، ولا يقابلوا سوء التصرف
بمثله، ولو كان الأصل جزاء سيئة سيئة مثلها، أي ان العدل قائم في
القصاص وفي المماثلة في استيفاء الحق.

وأبرز مثل على ذلك ما حصل من تمثيل في قتل المسلمين في غزوة
أحد، وبخاصة ما فعلوه بحمزة رضي الله عنه.

يقول ابن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ) عما وقع من تمثيل
بقتلى المسلمين في غزوة أحد: (ووقعت هند وصواحباتها على القتلى
يمثلن بهم، واتخذت هند من آذان الرجال وآنافهم خدما (خلاخل)
وقلائد، وأعطت خدمها (خلاخيلها) وقلائدها وحشيا، (قاتل حمزة)

وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها، فلم تستطع ان تستسيغها فلفظتها . .
ص(١١١).

(ووجد حمزة ببطن الوادي قد بقربطنه عن كبده ومثل به فجذع
أنفه وأذناه، فحين رآه رسول الله ﷺ قال :

«لولا أن تحزن صفية (شقيقة حمزة) أو تكون سنةً بعدي، لتركته
حتى يكون في أجواف السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على
قريش لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم، وقال المسلمون : لنمثلن بهم مثله لم
يمثلها أحد من العرب، فأنزل الله في ذلك :

﴿وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به﴾ الآية، فعفا رسول الله
ﷺ، وصبر ونهى عن المثلة .

وهذه الآية التي ذكرها ابن الأثير هي بتمامها كالتالي :

﴿وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم هو خير
للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما
يمكرون﴾ (من سورة النحل الآيتان ١٢٦-١٢٧).

فالعدل في هذه المعاملة هو أن تكون المعاقبة بالمثل، أي أن يمثل
المسلمون بقتل المشركين، كما مثل المشركون بقتل المسلمين، غير أن الله
سبحانه أرشدهم إلى ما هو أفضل، إلى ما يليق بأخلاق المسلمين،
فامثلوا لأمره سبحانه ولم يقابلوا أعداءهم بمثل صنيعهم .

وقد وردت آيات عدة تشير إلى المقابلة بالمثل، وذلك في قوله تعالى :

﴿وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب
المعتدين﴾ (سورة البقرة الآية ١٩٠)، بمعنى أن يقاتل المسلم من يقاتله،
مع التنبيه إلى عدم الاعتداء، أي إلى عدم تجاوز الحدود التي يرسمها

الإسلام لمعتنقيه بالاكتفاء بالقتال وما يتطلبه من جلاد ونزال وجرح وقطع وقتل . . ولكن دون تعذيب أو تمثيل ، وأن يتجنبوا قتل من لا يقاتل من النساء والصبيان والشيوخ والرهبان والمرضى . .
وفي قوله تبارك وتعالى :

﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين﴾ (سورة البقرة الآية ١٩٤) .

إن الاعتداء على المسلمين في الشهر الحرام يوجب عليهم ان لا يمنعهم ذلك من الرد على المعتدي بمثل عدوانه ، لأن من تجاوز حرمة هذا الشهر ، فهو المتسبب بأن يعامل بالمثل ، وقد ورد لفظ (الحرمات) بالجمع ، لوقوع الاعتداء في الشهر الحرام وفي البلد الحرام والمسلمون في لباس الاحرام . .

ولا يصح أن يقع الاعتداء ، ولو في مثل هذه الحرمات الثلاث ، وأن يسكت المسلمون عنه ، لأن معنى ذلك هو الذل والاستكانة ، والله سبحانه لا يرضى لعباده الذل ، وهو القائل : ﴿والله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ ، ولهذا أجاز لهم رب العالمين رد العدوان بمثله مع الأخذ بالتقوى .

وإن توجيه المسلمين إلى الأخذ بالتقوى يفيد عدم الإفراط في رد العدوان فيما إذا تحقق للمسلمين التمكن من أعدائهم ، لأن التمكن من العدو ، مع تحقق العدو من تغلب المسلمين عليهم وأنهم أصبحوا تحت رحمتهم ، يعطي للعفو وللتجاوز أثره على نفسية المغلوب ، وأن الغالب على تمكنه منه ، تجاوز عنه ولم ينتقم منه .

٢- التجاوز عن اساءات أعداء الله

إن التعامل مع الآخرين من قريب أو بعيد، ومن محب أو عدو، يجب ان يكون كما يأمر الله، صدقاً ونصحاً وتسامحاً وتجاوزاً، لأن أثر هذا التعامل يعود بالحسنى على من يتعامل معهم الإنسان، ويلين من جانبهم مهما كانت خصومتهم، ويكسبهم مستقبلاً إلى جانبه، أو يخفف من شدة غلوائهم وخصومتهم . . .

وقد أثبتت التجارب صدق هذا التوجيه الكريم وبخاصة مع الذين عادوا هذا الدين من المشركين ومن أهل الكتاب، فأقبل العرب عامة (من المشركين) على اعتناق الإسلام، وانتقلوا من معاداته إلى الزود عنه ونشره بين الناس، كما آمن عدد كبير من أهل الكتاب، بعد أن تثبتوا من صدق دعوة الرسول ﷺ، وتجاوزه عن المسيء وعدم مؤاخذته لمن أجرم بحقه .

يقول رب العالمين :

﴿عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم . لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين﴾ (من سورة الممتحنة الآيتان ٨٧ و٨٨) .

إن مثل هذه المعاملة تجذب قلوب الآخرين وقد تجعل منهم أنصاراً بعد أن كانوا أعداء . . .

﴿إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين وأخرجوكم من

دياركم وظاهروا على إخراجكم أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون ﴿٩﴾ الآية ٩ من السورة السابقة .

إن هذه الآية جاءت والمسلمون مضطهدون وملاحقون من أعدائهم المشركين ، فحذرتهم من أن يتولوهم وهم على هذه الحال ، وقد افتتح الله هذه السورة (سورة الممتحنة) بقوله :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ . إِنْ يَتَّقِوكُمْ كَمَا يَتَّقُونَ اللَّهَ وَيُؤْتُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَدَّوْا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ .

ومن هذا الافتتاح يتأكد لنا أن الله سبحانه يحذر المؤمنين من موالاة المشركين وهم في شدة معاداتهم لهم ، لأن المعركة لما تنته بعد ، فهم إذن في حرب مع المشركين ، وإن موالاتهم وهم في مثل هذه الحال ، كأنه تأمر ضد المسلمين ولا يليق بالمسلمين أن يفعلوا ذلك .

أما إذا لم يكن بين المسلمين والمشركين قتال ، فإن الدعوة تكون بالحسنى ، حتى وإن استمر المشركون أو الكفار على ضلالهم . وهذا ما نجده في قوله تعالى في سورة الجاثية :

﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ . مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴾ (الآيتان ١٤ / ١٥) .

إن توجيه الله سبحانه لعباده المؤمنين بأن يغفروا لمن أساء إليهم من

أعدائهم ، كان في ابتداء الإسلام ، فقد صدر الأمر إليهم بالصبر على أذى المشركين وأذى أهل الكتاب ، ليكون ذلك كالتأليف لهم ، وكان قدوتهم في تحمل الأذى محمد رسول الله ﷺ ، إذ لم يقابلهم بالإساءة أو ورد الأذى ، وكذلك كان صحابته الأولون ، طمعاً في أن ترق قلوب المشركين في مكة ويرتدعوا من أنفسهم ، ويهديهم الله إلى الإسلام ، غير أنهم لم يقدروا هذه المعاملة المسالمة ، فأمعنوا بالإيذاء حتى أجمعوا على قتله وإضاعة دمه في القبائل ، ولكن الله رد كيدهم وأنجى رسوله وجعل له الغلبة عليهم ، بعد أن مكّنه الله سبحانه منهم ، فلم يقابلهم بالمثل وإنما تجاوز عن كل ما صدر عنهم نحوه ونحو أصحابه وغفر لهم ماسبق بحقه منهم ولم يكرهم على اعتناق الإسلام ، وإنما ترك لهم الحرية في اعتناقه ، فأقبلوا راغبين فيه وأصبحوا من أنصار دعوته بعد أن كانوا من ألد أعدائه وأشدّهم على رسول الله وعلى صحابته الأولين ، وبخاصة على المستضعفين منهم^(١) .

وإن الله سبحانه بتوجيهه الكريم في أن يغفر المؤمنون لمن لا يؤمن بالله ، لم يتجاوز عن هؤلاء الذين لا يرجون أيام الله ، وإنما أُنذَرهم بأنه سيجازيهم بما كانوا يكسبون . . أي وفقاً لما صدر عنهم ﴿ليجزى الذين أساءوا بما عملوا﴾ . (سورة النجم الآية ٣١) .

وأكد سبحانه بأن من يعمل صالحاً فإنما يعمل لنفسه ، لأن الله غني عن العالمين ، وأن الذين يسيؤون في أعمالهم ، فإن إساءتهم مردودة عليهم وسيجازيهم الله بها يوم القيامة ، في اليوم الذي يكذبون بلفائه ، يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله .

(١) انظر الفصل الأول من الباب الثاني من هذا الكتاب الفقرة الثانية منه : (ماذا ترون أني فاعل بكم؟) .

مع الزوجات والأولاد

يقول الله تبارك وتعالى محذراً وموجهاً في علاقة الإنسان مع زوجته وأولاده :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن مِّنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدَوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعَفَوْا وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفَقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . إِن تَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُّضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ . عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (سورة التَّغَابُنِ ١٤-١٨) .

إن الخطاب في هذه الآيات للذين آمنوا ، والزوجات والأولاد ، هم زوجاتهم وأولادهم ، وعلى الأغلب لا يكون هؤلاء إلا تحت رُفْرَف الإيمان ورعايته ، غير أن بعضهم يكون سبباً في أن يحول دون وفاء الزوج أو الولد بما عليه من حقوق تجاه الآخرين ، مثل صلة الرحم وحسن الجوار وقضاء الحاجات . . لأن شدة المحبة للزوجة والأولاد يجعل تعلق الرجل بهم أسيراً لطلباتهم وحريصاً على تنفيذ رغباتهم ، إشفاقاً عليهم من أن يخالف لهم رغبة ، أو أن يحول دون تحقيق طلب ، فلا يستطيع من حبه لهم إلا أن يعطيهم ، ولا يحكم العقل في نتائج ما يرغبون فيه . .

وعندما يصحو الرجل على نفسه يشعر بأنه وقع في خطأ ما كان له

أن يقع فيه ، لولا سرعة استجابته لمثل هذه الطلبات غير الموزونة ، فيشتد عليهم أويقسوا ، وهنا جاء التوجيه الكريم بالحض على العفو وعلى الصفح وعلى الغفران . .

وعلى الرغم من تقارب معانيها . فإن لكل منها مدلوله الخاص به .
فالعفو: هو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه تلقائياً .

والصفح : هو الإعراض عن الذنب نتيجة طلب المسيء ، والصفح في صفة الله : العفو عن ذنوب عباده معرضاً عن مجازاتهم بالعقوبة ، واستصفحته ذنبه : استغفره إياه وطلب منه ان يصفح عنه .

والغفران : من غفر ، والغفور والغفار ، هما من أساء الله الحسنى ، ومعناهما السائر لذنوب عباده المتجاوز عن خطاياهم وذنوبهم ، وأصل الغفر : التغطية والستر .

فهذه التوجيهات والتحذيرات تحمل تأكيدات متكررة بأن يراعي الأزواج والآباء أحوال زوجاتهم وأولادهم ، وأن يتجاوزوا عما صدر عنهم مع الحذر منهم خوفاً من أن يقعوا في تصرفات تكون عواقبها غير سليمة ، أي أن عليهم أن يعملوا عقولهم قبل عواطفهم في معاملة الزوجات والأولاد . .

وإن العداوة أمر غير مرغوب فيه ، فإذا أفرط الزوج أو الوالد في التساهل والمسارة في هواهم ، تمادوا في الشطط ، حتى إذا أراد الوقوف أمامهم بحزم صعب عليه ردهم وتحول أمرهم إلى مخالفة ثم إلى عداوة . . والله سبحانه لم يغفل التذكير بذلك ، ومع احتمال وقوع العداوة فإنه سبحانه يوجه الأزواج والآباء إلى العفو والصفح والمغفرة . .

ثم يعقب سبحانه بقوله : ﴿ إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ

أجر عظيم ﴿ .

ولا يرد هنا ذكر للزوجات ، لأن أثرهن أقل من أثر الأولاد . .
فالأولاد يأخذون كنية أبيهم وينسبون إليه على كل حالاتهم ، أما
الزوجات فقد يبتعد عنهن بالطلاق . .

ولفظ (إنها) يأتي للحصر والتأكيد ، وهذا يكون فيما إذا لم يراع
الإنسان أوامر الله فيما استخلفه من مال ، وفيما وهبه من أولاد .

والمال والأولاد لهم فتنتهم وتأثيرهم على تصرفات الإنسان ، وقد ورد
التحذير من إغرائهم واتخاذهم تفاخراً وتكاثراً ، لكي لا يكونوا سبباً في
البعد عن الله وعن ذكر آلائه ، فقال سبحانه .

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهمكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن
يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾ (من سورة المنافقون) .

ثم يعقب سبحانه هذا التحذير بالأمر بالإنفاق من رزقه الذي رزقه
عباده من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله ، فيتمنى الإنسان أن يمهل
ربه ليتدارك مافاتة من خير ، ولكن هيهات : ﴿فإذا جاء أجلهم لا
يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ (سورة الأعراف الآية ٣٤) فيقول
سبحانه :

﴿وأنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا
أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله
نفساً إذا جاء أجلها والله خير بما تعملون﴾ (الآيتان من سورة المنافقون
رقم ١٠ و ١١) .

والمال والأولاد أمانة في يد راعيها ، وعليه هو المحافظة عليها قدر

الاستطاعة ، لقوله سبحانه : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيراً لأنفسكم ﴾ ، فإذا أدى حق الله فيهم ، فقد أعذر ، والله سبحانه أوضح لنا الطريق ، وهي السمع لأوامره وأوامر رسوله ، ومن ثم الإطاعة : ﴿ ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون ﴾ (من سورة النور الآية ٥٢) .

والإنفاق هو ختام التوجيه الإلهي السديد ، وهو مفتاح النفس الخيرة ، وبه يستطيع الإنسان أن يشتري غيره ، من ولد وزوجة وقريب ، بإحسانه وكرمه ، على أن يكون الإنفاق بالمعروف وفي وجوه مشروعة ، وهذا الإنفاق في حقيقته خير للإنسان ذاته ، لأنه يعود عليه بالذكر الحسن والأثر الطيب في دنياه وآخرته : ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

وهذا الإنفاق يتقبله سبحانه وكأنه قرض له ، وهو سبحانه الغني عن خلقه ، مادام صادراً عن نفس سمحة دون منة أو أذى ، والله سبحانه ، تعهد للمنفق أن يضاعفه له ، أي أنه يزيده من فضله أضعافاً مضاعفة ، لأنه سبحانه شكور يجزي على القليل بالكثير ، وحليم يصفح ويغفرو يسترو ويتجاوز عن السيئات ، وهي الصفات التي وجه الله سبحانه عباده المؤمنين أن يتحلوا بها .

وهو سبحانه عالم الغيب فلا يخفى عليه شيء ، كما أنه عالم الشهادة يراقب كل شيء ، وهو العزيز في سلطانه ، والحكيم في تصرفه وتدييره .

التكافل وآثاره الاجتماعية

١ - ومن أبواب الفضل التي يحض عليها الإسلام وشريعته السمحة التكافل الذي يتجلى في عطف القوى على الضعيف ، والغني على الفقير ، والقادر على المسكين واليتيم . . وأن لا يكون في ذلك منّة ولا أذى ، كي لا يضيع فضلهم عليهم .

وإن كلمة التكافل من الألفاظ التي تفيد اشتراك أكثر من واحد في تحقيق هذا المعنى الذي تتضمنه هذه الكلمة ، كالتعاون والتآزر والتناصر . .

والكفالة في حدّ ذاتها تعني ضمان إنسان بهاله أو بعمله أو بشخصه لشخص آخر أو لجهة أخرى . . وقد وردت في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة آل عمران :

﴿وَأَنْبَتْهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ (الآية ٣٧) .

وفي قوله تعالى أيضاً في سورة القصص :

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ﴾ (الآية ١٢) .

وفي هاتين الآيتين يرد المعنى بضم المكفول إلى من يكفله ليقوم بترتيبه وتعهده شأنه ، وهذا المعنى ورد أيضاً في قوله ﷺ :

«أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة» وضم بين أصبعيه السبابة والوسطى^(١).
فالكافل هو القائم بأمر اليتيم المربي له، وهو من الكفالة
بمعنى الضمان والرعاية: الضمين^(٢).

فكلمة التكافل بمفهومها العام تعني التضامن، أي أن يضمن كل
فرد قادر فرداً آخر، بحيث يعم ذلك الجميع فيشكلون بهذا التآزر والتمازج
أمة متماسكة يشد بعضها أزرب بعض.

وهذا ما سجله الرسول ﷺ، وأقره بحق المسلمين المتأخين في الله،
في أول دستور وضعه للدولة المسلمة بعد مقدمه إلى المدينة، وادَّعَ فيه يهود
وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم وشرط لهم واشترط عليهم فقال في
مطلع الكتاب بما يخص هذه الأمة الناشئة:

«هذا كتاب من محمد النبي، ﷺ، بين المؤمنين والمسلمين من
قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم، إنهم أمة واحدة من
دون الناس، المهاجرون من قريش على ربعتهم^(٣) يتعاقلون بينهم وهم
يفدون عانيهم^(٤) بالمعروف والقسط بين المسلمين.

وقال عن الأنصار: «إنهم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى،
وإن كل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين».

وقال عن الفتتين من المهاجرين والأنصار:

«وإن المؤمنين لا يتركون مُفْرَحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل^(٥)،
وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه، وإن المؤمنين المتقين على من بغى

(١) رواه الإمام الترمذي.

(٢) من كتاب (غريب الحديث والأثر) لابن الأثير.

(٣) ربعتهم: أمرهم الذي كانوا عليه.

(٤) عانيهم: أسيرهم.

(٥) المفرح: المقتل بالدين.

منهم أو ابتغى دسيسة ظلم^(١) أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين . وإن أيدىهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن ، وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس»^(٢) .

إن هذا النص يؤكد لنا أن المهاجرين والأنصار - ومن دخل معهم في دين الله - أصبحوا أمة واحدة بعد أن كانوا متباعدين بالنسب والولاء ، وأصبحت ذمتهم واحدة ويجير عليهم أدناهم ، وأنهم يد على من سواهم مهما كانت قرابته ، وأن بعضهم موالى (نصرأ) بعض دون الناس ، أي أنهم يتناصرون في السراء والضراء ، فيعطون الديات ويأخذونها ، وكذلك يفكون أسراهم ، ويقومون بوفاء الدين عن الغارمين ، كل ذلك بالتكافل والتضامن فيما بينهم ، لأنهم إخوة في الله .

وبهذه المعاني تشكلت منهم الأمة المسلمة ، وبالاستناد إلى هذه المعاني انطلقت الدعوة الإسلامية بين الناس .

وكذلك نلمس معنى التكافل المادي والمعنوي في حديث الأشعرين الذين يقول عنهم المصطفى صلوات الله وسلامه عليه : فهم مني وأنا منهم» لأنهم يتآزرون في السراء والضراء ، فيكونون مجموعة واحدة لا ينفرد واحد منهم عن الآخر .

«إنَّ الأشعرين كانوا إذا أجذبوا أو أرملوا جمعوا ما عندهم من زاد واقتسموه بينهم بالسوية فهم مني وأنا منهم»^(٣) .

(١) دسيسة ظلم : اعطية تدفع على سبيل الظلم .

(٢) من كتاب (سيرة ابن هشام) ج ٢ ص ١١٣ .

(٣) متفق عليه .

فالأشعريون في تصرفهم هذا ضربوا المثل لغيرهم من أنهم عند الضيق يسارعون في توحيد إمكاناتهم - على اختلاف قدرات وسعة كل واحد منهم - ويجعلونها تحت تصرف الجميع لتقسم بينهم بما تسد حاجتهم الضرورية بالتساوي من الناحية المعاشية ، ولم ينفرد أي منهم بما كان له قبل اقتضاء هذا التوحيد .

وهذا ماطبقه أيضاً من الناحية العملية أبو عبيدة بن الجراح ، في حديث رواه جابر رضي الله عنهما قال :

«بعث رسول الله ﷺ بعثاً قَبَلَ - أي تجاه - الساحل فأمر عليهم أبا عبيدة بن الجراح وهم ثلاثمائة وأنا فيهم فخرجنا حتى إذا كنا ببعض الطريق فني الزاد ، فأمر أبو عبيدة بأزواد الجيش فجمع ذلك كله فكان مزودي تمر^(١) ، فكان يقوتنا كل يوم قليلاً قليلاً حتى فني فلم يكن يصيبنا إلا تمر تمر ، فقلت^(٢) : وماتعني التمرة؟ فقال : لقد وجدنا فقدناها حين فني . قال : ثم انتهينا إلى البحر فإذا حوت مثل الطرب^(٣) فأكل منه ذلك الجيش ثمان عشرة ليلة ، ثم أمر أبو عبيدة بضلعين من أضلاعه فنصبا ثم أمر براحلة فرحلت ثم مرت تحتها فلم تصبهما» .

٢- هذا وإن توفير الأسباب التي تضمن للفرد الذي قصرت به إمكاناته وظروفه ، أن يجد من يرتفع به إلى المستوى اللائق ، من حيث إنه إنسان وفرد من أبناء هذا المجتمع دون أن تهدر كرامته أو تمتهن شخصيته ، إن توفير هذه الأسباب واجب على القادر من الناحية الفردية

(١) مزود : ما يوضع فيه الزاد .

(٢) هشام : أحد رواة الحديث عن جابر .

(٣) الطرب بكسر الراء : الجبل الصغير .

وواجب على الدولة من الناحية الجماعية ، لأن هذا الفرد الذي قصرت به إمكاناته ، له حق على أفراد مجتمعه في أن يعيش كريماً مثلهم ، لا يشعر بمذلة أو انتقاص ، مادام لم يصدر عنه ما يوجب المؤاخذة ، ولم يتقاعس عن الأخذ بالأسباب ، وهذا من الناحية المادية . .

غير أن الفرد المسلم في مجتمعه ولولزت به قدمه ، وانحدر نحو الغواية ، فإن النظرة إليه هي نظرة شفقة ورحمة ، لانظرة احتقار وشماتة وهجران ، تحاول أن تجد له العلاج المادي أو النفسي لتنتشله مما هو واقع فيه ، كمن تنزلق به قدمه ، أو يصدمه شيء ، أو يقع في حفرة فهل يترك على حاله أم أنه يجد من يسارع إلى تقديم العون لإنقاذه من هذه الحالة ؟ وكذلك من زلت به قدمه من الناحية المعنوية فإنه سيلقى نفس المبادرة إلى المساعدة لانتشاله مما هو فيه .

وإن أبرز ما يصف هذا التعاون والتناصر ضد المفسد المعنوية والعجز المادي قول الرسول ﷺ :

«المؤمن للمؤمن كالبنیان يشد بعضه بعضاً»^(١) بتماسكه وتعاونه وتناصره بحيث لا يترك مكاناً لضعف إلا سارع إلى ترميمه وإحاطته بما يكفل استمرار سلامته ، لأن سلامة الفرد من سلامة المجموع ، فإذا مادبّ الوهن إلى لبنة من لبنات الهيكل العام للمجتمع ولم ينتبه إليها أحد ، أو لم يقم بواجبه نحو نفسه في تدارك هذا النقص وسد هذه الثغرة ، فإن البلاء سيعم دون أدنى ريب بالجميع عاجلاً أو آجلاً .

ولهذا شبّه الرسول الأعظم تآزر المؤمنين فيما بينهم بالبنیان المتماسك يشد بعضه أزرب بعض باستمرار وتعاضد .

(١) متفق عليه .

ويعصف الرسول الأعظم المؤمنين في وحدة شعورهم ووحدة مصيرهم ومدى إحساسهم بما يصيب بعضاً منهم بالجسد الواحد فيقول :

- «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»^(١).

وهذا أبلغ وصف وأدق في أن المجتمع الإسلامي مجتمع فرد، أي أنه مجتمع واحد من حيث وحدة الشعور والاحساس بحيث يتأثر المجتمع بأسره فيما إذا أصيب فرد منه، كما يتأثر الجسد الواحد إذا اشتكى عضو منه .

وكذلك يقول عليه الصلاة والسلام في هذا المعنى :

- «المسلمون تتكافؤ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم»^(٢)

وكلمة (يد على من سواهم)، تفيد وحدة المجتمع أيضاً، لأن اليد هنا تعني يد الجميع وكأنها يد واحدة، أي أنها تتصرف تصرف اليد الواحدة في كل أمورها .

وهذه التشبيهات جميعها تؤكد وحدة المجتمع الإسلامي في إحساسه وشعوره، وتداعيه إلى التناصر والتعاون والتآزر، ومن ثم التكافل بحيث إن كل واحد من أفراد هذا المجتمع كافل ومكفول، كما إنه راع ومسؤول .

٣- إن التكافل بين أفراد المجتمع لا يبرز بصورة واضحة وجلية إلا

(١) متفق عليه .

(٢) متفق عليه .

عند الاقتضاء وفي حالة الأزمات ، وعندها يعرف المجتمع المتناسك من غيره ، ويقطف ثمار تكافله وتآزره في أيام الشدة والضيقة .

وإن المسارعة إلى مد يد العون إلى من هو في حاجة إليه تكسب وده ونصرته ، في وقت قد يكون هوفيه أفضل حالاً مما أصبحت عليه ، وهذه المسارعة في مد يد العون عند الحاجة تمتص النقمة ، من المغلوب على أمره ، عن مجتمعه الذي لم يتخل عنه في ساعة العسرة ، وتركه يعيش في اطمئنان وأمان من أنه إذا قصّرت به الأسباب ، فإن له في إخوانه من يرتفع به إلى المستوى اللائق به ، وكأنه لم ينقصه شيء من حاجياته التي كان يوفرها لنفسه قبل ان يعجز عن ذلك ، أو تحول دونه أسباب لا يد له فيها . .

أما إذا كان هذا الفرد في أصله عاجزاً عن الكسب لسبب من الأسباب ، فإن مد يد العون إليه بما فيه الكفاية تنقذه من شعور العجز ، وتنتشله من الأفكار السوداء التي يوسوس له بها شيطانه . .

فالتكافل في مدلوله يجعل التعاون بين أفراد المجتمع بعضهم مع بعض أمراً مسلماً وحقيقة واقعة لا تحتاج إلى بيان ، لأن شعور الفرد بالنسبة لغيره ، هو شعور غيره بالنسبة له ، فهم وإن تعددوا في المجتمع ، ولكنهم كالجسد الواحد الذي يتكون من أعضاء عدة ، لكل عضو نشاطه وأهميته ، وكل عضو متصل بالعضو الآخر والأعضاء الأخرى بوحدة الشعور والاحساس والمصير .

ولهذا فإن اختلاف مكانة كل فرد في المجتمع لا تعدم الشعور فيما بينهم ، لأن كل واحد منهم متمم للآخر ، ويؤدي دوراً لا يؤديه سواه ، أو لا يغني عنه آخر . .

وهكذا أفراد الأمة فإنهم يختلفون بالقدرات والاستعدادات
ويتفاوتون بالأرزاق ولكنهم من حيث إنهم يعيشون في مجتمع واحد، فإن
كل واحد منهم يجب أن يحصل على كفايته المعاشية من مجتمعه مادام
يؤدي واجبه بالتعاون مع الآخرين . . وأن لا يشعر عند حصول حد
الكفاية بأية مذلة أو منقصة، لأن ما يحصل عليه هو حق من حقوقه .
والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه .

الفصل الثامن :

من أبواب الفصل :

- ١- الإحسان .
- ٢- أن تحسن إلى من أساء إليك .
- ٣- أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .
- ٤- الإحسان في كل شيء .
- ٥- أن تحسن إلى جارك .
- ٦- الإحسان للوالدين .

الفصل الثامن:

الإحسان

لم أقف في غير الدين الإسلامي على مفهوم يقارب في شموله وعمومه مفهوم الإحسان، فهو في الحقيقة خلق إسلامي متميز، وكلمة الاحسان تدل على معان جلية، فهي:

أولاً: ان تحسن إلى من أساء إليك:

إن هذه الكلمة تتجاوز المعاملة بالمثل أورد الجميل أو الشكر على صنيع سابق، وترتفع بالمسلم إلى أن يحسن إلى الناس، ولو لم يسبق له منهم الإحسان، بل تصل إلى مرتبة أعلى وهي مقابلة الإساءة بالإحسان، وصدق الله العظيم:

﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون﴾ (سورة المؤمنون الآية ٩٦)

وهذا خطاب للرسول ﷺ، أرشده فيه ربه سبحانه إلى الترياق النافع في مخالطة الناس، وهو الإحسان إلى من يسيء إليه ليستجلب خاطره فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة^(١).

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٥٥.

وهكذا فإن الإسلام رفع مرتبة الإحسان بأن جعله جزاء للسيئة ودواء لها ، وبذلك سل سخائم النفوس وقضى على الضغائن فانقلب العدو بفعل هذه المعاملة الحسنة إلى صديق مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ (سورة فصلت الآيتان ٣٤-٣٥).

ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير هذه الآية انه قال : «أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب ، والحلم عند الجهل ، والعقل عند الإساءة ، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان وخضع لهم عدوهم وكأنه ولي حميم»^(١).

وهذه من مكارم الأخلاق ومحاسن الصفات التي ترتفع بالمسلمين ، فيما إذا تمسكوا بها إلى مرتبة الفضل ، وهي مرتبة الإحسان التي أمر الله بها ، جامعاً بينها وبين مرتبة العدل في قوله سبحانه :

﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾ (سورة النحل الآية ٩٠) وقد جاء الإحسان بعد العدل تنبيهاً على أثره على النفوس .

وكذلك فقد وصف الله عباده المؤمنين بأنهم يدرؤون بالحسنة السيئة فقال سبحانه :

﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ويدرؤون بالحسنة السيئة أولئك هم عقبى الدار،

(١) المرجع السابق ج ٤ ص ١٠٢ .

جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم
والملائكة يدخلون عليهم من كل باب . سلام عليكم بما صبرتم فنعم
عقبى الدار ﴿ سورة الرعد الآيات ٢٢-٢٤) .

والرد على السيئة بالحسنة أمر لا يستطيع تحمله والإقدام عليه إلا من
أوتي صبراً جميلاً وحظاً عظيماً ، لقوله تعالى في ختام الآية التي يأمر فيها
المسلم بأن يدفع بالتى هي أحسن :

﴿ وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظٍ عظيم ﴾ .

ويصف رب العالمين من آمن من أهل الكتاب بمحمد ﷺ
وتحملوا عنت قومهم وبهتانهم بهذا الوصف الحميد فيقول سبحانه :

﴿ الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون . وإذا يتلى عليهم
قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين . أولئك يؤتون
أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون .
وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام
عليكم لا نبغى الجاهلين ﴾ (سورة القصص آيات من ٥٢-٥٥) .

ودفع السيئة بالحسنة لا يكون إلا مع الصبر وتحمل الأذى ، وبذلك
ترتفع مرتبة الصبر إلى هذه الدرجة التي توصل المتعلق به إلى مراتب أولى
العزم ، لقوله تعالى :

﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾ (سورة الشورى الآية ٤٣) .

وقد قرن الله سبحانه وتعالى الصبر مع الإحسان في أكثر من آية ،
وجعل من يصبر من المحسنين فقال تعالى :

﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات ذلك ذكرى للذاكرين . واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾
(سورة هود الآيتان ١١٤-١١٥).

والإحسان ثانياً: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» :

فالإحسان هنا يفيد الاخلاص في العبادة كما يفيد المراقبة وحسن الطاعة .

وهذا الايضاح لمعنى الاحسان ، كما قاله عليه الصلاة والسلام ، هو أوسع إيضاح وأبلغه ، لأنه غاية مايمكن أن يتوصل إليه الإنسان هو الإخلاص في العبادة ومراقبة الله في كل عمل والإخلاص شرط في صحة الإيمان والإسلام معاً ، ذلك أن من تلفظ بالكلمة وجاء بالعمل من غير نية إخلاص ، لم يكن محسناً ، ولا كان إيمانه صحيحاً . ومن راقب الله في جميع أموره حسن عمله وصلح حاله واستقام نهجه ، لأن الإنسان إذا تيقن أن الله سبحانه وتعالى يراه في كل عمل أو تصرف يقوم به ، وأنه رقيب عليه ، وأنه لا يخفى عليه شيء من تصرفاته وأقواله عدل من نهجه وسلك الطريق المستقيم .

ويجدر بنا في هذا الصدد ، أن نقدم هذه الفرضية التالية لتكون مثلاً نستعين به على فهم هذا المعنى من الإحسان ، ولندرك ان الله سبحانه وتعالى هو أجل واعظم وأكبر من كل مخلوق ، فنتقي محارمه ونحرص على رضاه :

افترض نفسك أنك تعمل تحت إشراف مخلوق ، وله عليك سلطة
هو يراقبك ويتابع عملك بنفسه فكيف تكون حياله؟
إنك لاشك ستحرص على أن تؤدي عملك على أحسن وجه
وأكملة ، ضمن حدود استطاعتك .

ولما كان الله سبحانه وتعالى هو الرقيب علينا ، وهو المطلع على
خفايا نفوسنا ، وهو الذي لا تغيب عنه شاردة ولا واردة ، وهو السيد
المطاع في كل شيء ، لذلك كان الاحسان بهذا المعنى إحساناً لنفسك -
أيها الإنسان - كي تتجنب غضبه وتتقي عذابه .

والله سبحانه وتعالى يقول :

﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ (سورة الاسراء الآية ٧) .

والله سبحانه وتعالى لم يتعبدنا بالمشقة ، وإنما تعبدنا بما فيه
استطاعتنا وقدرتنا ، لقوله جل وعلا :

﴿لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (سورة البقرة الآية ٢٨٦) .

فالتأكد دوماً من ان الله سبحانه وتعالى رقيب على الإنسان وهو معه
أينما كان ، يجعله في تقوى مستمرة ، وفي احسان مستمر لنفسه وللناس
أجمعين .

ومن حيث إن الإنسان تعترضه نوازع الشيطان فينحرف عن
الصراط المستقيم فقد فتح الله له باب التوبة والمغفرة حتى يرجع إلى ربه
معترفاً بذنبه ونادماً على ما فرط في حق نفسه .

والتوبة الصادقة تمحو الذنوب . . وصدق الله العظيم :

﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
رَحِيمٌ﴾ (سورة المائدة الآية ٢٩) .

ويقول جل شأنه :

﴿والله يدعو إلى دار السلام ويهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم .
للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ولا ترمق وجوههم قتر ولا ذلة أولئك
أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾ (سورة يونس الآيتان ٢٥-٢٦) .

والإحسان ثالثاً : وهو الإحسان في كل شيء .:

روى الامام مسلم في صحيحه عن شداد بن أوس رضي الله عنه
عن الرسول ﷺ انه قال :

«إن الله كتب الاحسان على كل شيء ، فإن قتلتم فأحسنوا القتلة
وإن ذبحتم فأحسنوا الذبحة وليحد أحدكم شفرته وليرح ذبيحته» .
ابتدأ الرسول الكريم قوله في هذا الحديث الشريف بالتعميم
والإطلاق ، فقال :

إن الله كتب الاحسان على كل شيء .

ومن ثم انتقل ﷺ إلى التخصيص ، فذكر حالة من حالات
الإحسان تتعلق بالحيوان فقال :

فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة . . إلى آخر ما جاء في الحديث المستشهد به .
وهذا التخصيص من الرسول ﷺ في كيفية ذبح الحيوان المعد
للذبح يؤكد لنا ان الإسلام دين الرحمة . . هذه الرحمة التي شملت كل
شيء ، ولم تقتصر فقط على الجنس البشري ، وإنما شملت المخلوقات
جميعاً ، لأن التعذيب محرم في الإسلام ، ولو كان حيوان مفترس ، أو لعدو
غاشم .

ويروى عنه عليه السلام قوله :

عَذَّبْتُ امْرَأَةً فِي هَرَّةٍ حَبَسْتُهَا حَتَّى مَاتَتْ فَدَخَلْتُ النَّارَ، لَا هِيَ أَطْعَمْتُهَا وَسَقَمْتُهَا إِذْ حَبَسْتُهَا وَلَا هِيَ تَرَكَتْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ» (متفق عليه).

وإن رجلاً دخل الجنة بسبب إحسانه إلى كلب، حتى قال عليه السلام :
«في كل كبد رطبة أجر»، وتام نص الحديث هو التالي :

«بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش فوجد بئراً فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل : لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ماء ثم أمسكه بفيه حتى رقي، فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له . قالوا : يا رسول الله إن لنا في البهائم أجراً؟ فقال : في كل كبد رطبة أجر» .
وفي رواية للإمام البخاري : فشكر الله فغفر له فأدخله الجنة .

وفي رواية أخرى للبخاري ومسلم : «بينما كلب يطوف بركبة قد كاد يقتله العطش إذ رأته بغي من بغايا بني إسرائيل فنزعت خفها وأوثقت به بخمارها فاستقت له فسقته فغفر لها به» .

وعن هشام بن زيد بن أنس بن مالك قال :

دخلت مع جدي أنس بن مالك رضي الله عنه دار الحكم بن أيوب، فإذا قوم نصبوا دجاجة يرمونها، فقال أنس : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تصبر البهائم . (أي أن تمسك، وتجعل هدفاً يرمى إليه حتى تموت) .

وعن سعيد بن جبير قال : مرَّ ابن عمر بفتيان من قريش قد نصبوا طيراً وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر : من فعل هذا؟ لعن الله من فعل

هذا . . ان رسول الله ﷺ لعن من اتخذ شيئاً فيه الروح غرضاً .
فالإحسان بمفهومه الإسلامي لا نظير له إطلاقاً ، لأنه يشمل
الإنسان نفسه ، ويشمل الخلق عامة .

والخلق كلهم عيال الله وأحبهم إليه أنفعهم لعياله ، والنفع المذكور
هو من الإحسان أيضاً ، وهو يشمل الحيوانات جميعها . . أو بشكل أدق
وأوضح فإنه يشمل كل ذي روح إطلاقاً ، ولو كان الحيوان مضرّاً أو
مؤذياً ، لأن تعذيب الحيوان منهي عنه كتعذيب الإنسان حياً أو ميتاً .
وللإنسان أن يقتل الحيوان المؤذي دون أن يعذبه .

وإن تعذيب الميت هو التمثيل به بعد وفاته ، وقد نهى عليه الصلاة
والسلام أن يمثل بقتلى المشركين على الرغم من تمثيلهم بعمه حمزة رضي
الله عنه .

والإحسان رابعاً: أن تحسن إلى جارك:

إن العلاقات الاجتماعية بين بني البشر متشابكة ، لحاجة بعضهم
إلى بعض ، وإن اقرب الناس إلى الإنسان هم جواره - بعد أهله وذويه ،
وقد يكون أهله غير مجاورين له - فيكون الجار أكثر صلة والتقاء بجاره . .
ولذلك ورد التأكيد على حسن معاملة الجار بشكل جعل الرسول ﷺ
يقول :

«ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه» (رواه
البخاري) .

وروى الامام مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال :

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره» .

وقد نفى ﷺ الإيمان عمّن لم يأمن جاره بوائقه بقوله ﷺ :

«والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، قيل : ومن يارسل

الله ؟ قال : الذي لا يأمن جاره بوائقه» .

وهي مبالغة تنبيء عن تعظيم حق الجار وأن الإضرار به من

الكبائر .

ومن الإحسان إلى الجار: السلام عليه عند لقائه ، وطلاقة الوجه عند التحدث إليه ، وتفقد حاله بالسؤال عنه في حال غيابه . . ومعاونته فيما يحتاج إليه ، وكف أسباب الأذى عنه ، على اختلاف أنواع ذلك حسية كانت أو معنوية . . وأن يهدي إليه فيما إذا طبخ أو ذبح أو غير ذلك من أسباب زيادة التواد والتحابب فيما بينهم . .

وفي حديث جامع لرسول الله ﷺ يحيب به معاذ بن جبل رضي الله

عنه عندما سأله ، ماحق الجار على الجار؟ :

«قال : إن استقرضك أقرضته ، وإن استعانك أعنته ، وإن مرض

عدته ، وإن احتاج أعطيته ، وإن افتقر عدت عليه ، وإن أصابه خير

هنيته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ، وإذا مات اتبعت جنازته ، ولا

تستطيل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ، ولا تؤذيه بريح قدرك

إلا أن تغرف له ، وإن اشتريت فاكهة فاهدله ، وإن لم تفعل فأدخلها سراً

ولا تخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده» . (من كتاب فتح الباري شرح صحيح

البخاري ج ١٠ ص ٤٤٦) .

والإحسان خامساً: هو الإحسان للوالدين:

رفع الإسلام شأن الوالدين وأعظم مكانتهما، وأمر بالإحسان إليهما ورعايتهما وأكثر من التوصية بهما تأكيداً لحقهما على الأولاد، وقرن الدعوة إلى الإحسان إليهما بعبادته وعدم الإشراك به، وقضى أمره بذلك، كما قضى أمره بعبادته وحده، وهذه منزلة لم نجد لها مثيلاً في القرآن العظيم لغير الوالدين.

هذه الدعوة من الله سبحانه سبقت التوصية بها لبني إسرائيل من قبل، فقال تعالى:

﴿وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلاً منكم وأنتم معرضون﴾ (سورة البقرة الآية ٨٣).

ثم جاءت التوصية من الله سبحانه لعباده المؤمنين في سورة النساء وهو يتحدث عن أحوال الأسرة، ويقدم الدعوة بالإحسان إلى الوالدين على كل أفعال الخير، وذلك بعد الأمر بعبادة الله وعدم الإشراك به، فيقول سبحانه:

﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم . ألا تشرکوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من املاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن . .﴾ (إلى آخر الآية والآية التي بعدها رقم ١٥١-١٥٢ من سورة الانعام).

وقد ورد ذكر الإحسان إلى الوالدين بعد تحريم الإشراك بالله في عداد

المحرمات من الكبائر وهذا يفيد أن عدم الإحسان إليهما هو من أشد المحرمات التي ينهى عنها الإسلام، ويشدد في هذا النهي، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ ثلاثاً، قالوا: بلى. قال: الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وجلس وكان متكئاً، ألا وقول الزور، فما زال يكررها حتى قلت (الراوي) ليته سكت».

(إن تغيير الجلسة بعد بداية الحديث يشير إلى أهمية ما يريد أن يحذرهم منه).

وفي هذا الحديث يقرن الرسول ﷺ بين الإشراك بالله، وهذا من أكبر الكبائر وبين عقوق الوالدين، ويجعل التحذير من الوقوع في ذلك من الكبائر التي نهى الله عنها.

والله سبحانه يوصي الإنسان بوالديه إحساناً ولو كانا على الشرك، أو جاهدها على أن يعود إلى الشرك، ويأمره سبحانه بأن يطيعهما إلا في العودة إلى الشرك، وأن يبقى على حسن الصلة بهما، وأن يحافظ على برهما، وأن يصاحبهما في الدنيا معروفاً، وهذا أعلى ما وصلت إليه الدعوة إلى البر والاحسان إلى الوالدين، ولنقرأ قوله تعالى بهذا الخصوص، يقول سبحانه:

﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وأن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ (سورة العنكبوت الآية ٨).

ويؤكد سبحانه وتعالى هذا المعنى في سورة لقمان ويزيده أيضاً

بقوله جلّ وعلا :

﴿ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهناً على وهنٍ وفصاله في عامين أن اشكر لي ولوالديك إليّ المصير. وإن جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً واتبع سبيل من أناب إليّ ثم إليّ مرجعكم فأنبيئكم بما كنتم تعملون﴾ (الآيتان ١٤-١٥).
وتأتي التوصية من الله سبحانه في تجنب المحرمات وعلى رأسها الإشراف بالله وعدم الإحسان إلى الوالدين فيقول سبحانه :

﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً﴾ (الآية ٣٦ من سورة النساء).

ويفصل رب العالمين في سورة الإسراء ما يجب أن يكون عليه موقف المسلم من أبويه بأسلوبه المعجز الحكيم فيقول :

﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً. إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً. ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً﴾ (الآيات ٢٣-٢٥).

ثم يقول أيضاً :

﴿وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهم قولاً ميسوراً﴾ (الآية ٢٨).

وهذا التوجيه السديد من رب العالمين في حفظ حقوق الوالدين

ورعايتها والحرص على رضاها وتجنب أذاها ولوبكلمة (اف)، أمر ليس له مثيل في غير الإسلام، لأن معاملة المسلم لوالديه تقوم على أساس هذا التوجيه السديد وتبنى عليه، لا على الصلات المادية والمنافع الدنيوية.

ويروى عن الرسول ﷺ قوله حول كلمة (اف):

«لو علم الله من العقوق شيئاً أردأ من (اف) لذكره، فليعمل البار ما شاء أن يعمل فلن يدخل النار، وليعمل العاق ما شاء أن يعمل فلن يدخل الجنة» (تفسير القرطبي ج ١٠ ص ٢٤٣).

وكلمة (اف) تقال لكل شيء مرفوض ومكروه، يتضجر منه الإنسان (ويتأفف) ولذلك قال إبراهيم عليه السلام لقومه وهو في حالة تبرم منهم ومما يعبدون:

﴿أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (سورة الأنبياء الآية ٦٧).

أي رفضاً وكرهاً وضيقاً بكم وبهذه الأصنام معكم.

والإحسان إلى الوالدين يتم في حياتهما وبعد مماتهما، ويكون في حياتهما بأن تحفظ حقوقهما وترعاهما، وأن لا تسيء إليهما بشيء يكرهانه منك بقول أو عمل، وأن تحرص على رضاها ما لم يأمرك بمحرّم. والإحسان إلى الوالدين بعد موتهما أن يحفظ ودّهما وأن يدعوا ويستغفر لهما.

عن ابن أسيد رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فقال رجل:

يا رسول الله، هل بقي من برّ أبيّ شيء بعد موتها أبرهما؟

قال: «نعم، خصال أربع: الدعاء لهما والاستغفار لهما، وإنفاذ

عهدهما ، وإكرام صديقيهما وصلة الرحم التي لا رحم لك إلا من قبلهما»
(رواه أبوداود وابن ماجه) .

ومن البر في حياتهما ومماتهما ان لا يعرضهما للسب ، فإن ذلك من
الكبائر بلا خوف ، لقول النبي ﷺ :

«إن من الكبائر شتم الرجل والديه . قالوا : يا رسول الله ، وهل يشتم
الرجل والديه؟ قال : نعم ، يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب
أمه فيسب أمه» .

المصادر والمراجع

المؤلف

الكتاب

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم - محمد فؤاد عبد الباقي .
- ٣ - فيض الباري شرح صحيح البخاري - أحمد بن علي بن حجر العسقلاني .
- ٤ - صحيح الامام البخاري - محمد بن اسماعيل البخاري .
- ٥ - مسند أحمد بن حنبل - أحمد بن حنبل الشيباني .
- ٦ - اعلام الموقعين عن رب العالمين - شمس الدين ابوعبدالله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية .
- ٧ - الحسبة لابن تيمية - تقي الدين ابوالعباس أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام الحاني الدمشقي المعروف بابن تيمية .
- ٨ - الجواب الصحيح لمن بدّل دين المسيح - للإمام ابن تيمية .
- ٩ - لسان العرب - أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري .
- ١٠ - النهاية في غريب الحديث والأثر - مجد الدين ابوالسعدادات المبارك بن محمد الجزري المعروف بابن الأثير .
- ١١ - الصحاح - تاج اللغة وصحاح العربية - اسماعيل بن حماد الجوهري تحقيق أحمد عبد الغفور عطار .
- ١٢ - صحيح الامام مسلم - ابوالحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم .
- ١٣ - الكامل في التاريخ لابن الأثير - ابوالحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبدالكريم ابن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير الجزري الملقب بعز الدين .
- ١٤ - الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد - مصطفى أحمد محمد الزرقاء .

- ١٥- لمحة من تاريخ التشريع الإسلامي - مناع خليل القطان (بحث في محاضرات العالم الإسلامي عام ١٣٨٦ ص ٢١٢).
- ١٦- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي أ. ي. ونسك وي. ب منسج.
- ١٧- سنن الدارقطني - على بن عمر الدارقطني.
- ١٨- زاد المعاد في هدى خير العباد- لابن قيم الجوزية.
- ١٩- موطأ الامام مالك - مالك بن أنس.
- ٢٠- سنن الترمذي - محمد بن عيسى الترمذي.
- ٢١- سنن أبي داود- سليمان بن الأشعث السجستاني.
- ٢٢- تفسير ابن كثير - ابوالفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي.
- ٢٣- سيرة ابن هشام- ابو محمد عبد الملك بن هشام تحقيق الدكتور خليل هراس.
- ٢٤- تاريخ الطبري (تاريخ الامم والملوك) - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري.

آثار المؤلف

١- المطبوعة :

- ١- الدساتير السورية بعد الانتداب (دراسة دستورية مقارنة) باللغة الفرنسية .
- ٢- المدخل إلى القانون المدني والالتزامات - طبع جامعة حلب .
- ٣- الشورى في الإسلام - دار الارشاد - بيروت .
- ٤- في التشريع النبوي - دار الارشاد - بيروت .
- ٥- الاقتصاد في ضوء الشريعة الإسلامية - دار الكتاب اللبناني - بيروت .
- ٦- المال في الإسلام - دار الكتاب اللبناني - بيروت .
- ٧- السوق الإسلامية المشتركة - دار الكتاب اللبناني - بيروت .
- ٨- الشركات التجارية . دراسة لنظام الشركات السعودي - المؤسسة العلمية - حلب .
- ٩- الأوراق التجارية . دراسة لنظام الأوراق التجارية السعودي المؤسسة العلمية - حلب .
- ١٠- الأسس الفكرية والعلمية للاقتصاد الإسلامي . دار الرفاعي - الرياض .
- ١١- معاني الاخوة في الإسلام ومقاصدها . رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة .
- ١٢- الشورى - سلوك والتزام . رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة .
- ١٣- المصارف الإسلامية ضرورة صحية . المكتب الإسلامي - بيروت .
- ١٤- خصائص الاقتصاد الإسلامي وضوابطه الأخلاقية . المكتب الإسلامي - بيروت .
- ١٥- الكسب والانفاق وتوزيع الثروة في المجتمع الإسلامي . المكتب الإسلامي

- بيروت .

١٦- اعمار الأرض في الاقتصاد الإسلامي واستثمار خيراتها فيما ينفع الناس .

المكتب الإسلامي - بيروت .

١٧- الحرية الاقتصادية في الإسلام . رابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة .

١٨- إلى الشباب المسلم في غربته . مطابع دار الشبل - الرياض .

١٩- الإنسان وحرية في الإسلام . مطابع دار الشبل - الرياض .

٢٠- مصادر تحويل الدولة الإسلامية . مطابع دار الشبل - الرياض .

٢١- في منطلق الدعوة والخلافة الراشدة .

٢- الجاهزة للطبع :

- زواج المسلمة بغير مسلم وحكمه وتحريمه .

- لطائف الفكر في الملح والآداب والعبر .

- الشورى في الإسلام - تناصح وتعاون .

- الشريعة الإسلامية شريعة العدل والفضل .

- نظرات ابن خلدون الاقتصادية .

- تصنيف موضوعات القرآن الكريم .

- الآيات القرآنية والأحاديث النبوية في المال والاقتصاد .

- الاحسان خلق إسلامي .

- قبسات نورانية من سيرة صاحب الخلق العظيم ﷺ .

- مقام المرأة في الإسلام .

- التوجيه الاجتماعي في الإسلام .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
- المقدمة	٧
- شريعة العدل والفضل	٩
- شريعة العدل	١١
- شريعة الفضل	١٦
- شريعة العدل والفضل في العبادات	٢٠
- الباب الأول: شريعة العدل	٢٥
- البحث الأول: الشريعة في الإسلام	٢٧
١- الشريعة لغة	٢٧
٢- الشريعة اصطلاحاً	٢٨
٣- من هو المشرع	٢٩
٤- هل لغير الله ورسوله حق التشريع	٣٠
٥- الفرق بين الرسول من حيث كونه وليّ أمر وبين من خلفه في هذه الصفة	٣٣
٦- صفة ما يصدر عن ولاية الأمر لرعاياهم	٣٥
٧- وجوب سهر الأمة على رعاية مصالحها	٣٦
- البحث الثاني: محاسن الشريعة	٣٩
١- العلم بالشريعة	٤١
٢- مقاصد الشريعة	٤٣
	١٦٣

٤٣	أولاً : تحرير العقل البشري
٤٣	ثانياً : اصلاح الفرد
٤٤	ثالثاً : اصلاح المجتمع
٤٥	٣- مصدر الشريعة
٤٥	(أ) الكتاب
٤٦	(ب) السنة
٤٧	٤- اختلاف الشريعة الإسلامية عن التشريع الوضعي
٤٨	٥- من خصائص الشريعة
٤٨	أولهما : شمول الشريعة
٤٩	ثانيهما : كلية الشريعة
٥٠	٦- المعاملات في الشريعة
٥٣	- البحث الثالث : العدل في الشريعة
٥٦	- البحث الرابع : العدالة في توزيع الميراث
	- البحث الخامس : العدل ، أوالتوازن بين
٦١	مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع
٦٨	- البحث السادس : العدل في فريضة الزكاة جباية وتوزيعاً
٧١	- الباب الثاني : شريعة الفضل
٧٣	- مقدمة : المدخل إلى شريعة الفضل
٧٧	- الفصل الأول : من مواقف أهل الفضل
٧٩	١- موقف يوسف عليه السلام من اخوته
٨٢	٢- ماترون أي فاعل بكم

٨٦	٣- ألا تحبون أن يغفر الله لكم
٨٩	- الفصل الثاني : من أبواب الفضل
٩١	١- حسن قضاء الدين
٩٥	٢- التجاوز عن المعسر
٩٨	٣- حسن الخلق
١٠١	٤- الذين يدرؤون بالحسنة السيئة
١٠٥	الفصل الثالث : صدقة التطوع
١١٣	الفصل الرابع : الوقف أو الصدقة الجارية
١١٦	- من الناحية الاقتصادية
١١٦	- من الناحية التعليمية
١١٨	- صلاح الفرد والمجتمع
١٢٥	- الفصل الخامس : المعاملة مع الأعداء
١٢٥	١- العدالة مع الأعداء
١٢٨	٢- التجاوز عن إساءات أعداء الله
١٣١	- الفصل السادس : مع الزوجات والأولاد
١٣٥	- الفصل السابع : التكافل وآثاره الاجتماعية
١٤٥	- الفصل الثامن : الاحسان
١٤٥	أولاً : ان تحسن إلى من أساء إليك
١٤٨	ثانياً : ان تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك
١٥٠	ثالثاً : الاحسان في كل شيء
١٥٢	رابعاً : ان تحسن إلى جارك
١٥٤	خامساً : الاحسان للوالدين

١٥٩	- المصادر والمراجع
١٦١	- آثار المؤلف
١٦٣	- المحتوى

صدر من هذه السلسلة

- ١ - تأملات في سورة الفاتحة ----- الدكتور حسن باجودة
- ٢ - الجهاد في الاسلام مراتبه ومطالبه ----- الأستاذ أحمد محمد جمال
- ٣ - الرسول في كتابات المستشرقين ----- الأستاذ نذير حمدان
- ٤ - الاسلام الفاتح ----- الدكتور حسين مؤنس
- ٥ - وسائل مقاومة الغزو الفكري ----- الدكتور حسان محمد مرزوق
- ٦ - السيرة النبوية في القرآن ----- الدكتور عبد الصبور مرزوق
- ٧ - التخطيط للدعوة الاسلامية ----- الدكتور محمد علي جريشة
- ٨ - صناعة الكتابة وتطورها في العصور الاسلامية ----- الدكتور أحمد السيد دراج
- ٩ - التوعية الشاملة في الحج ----- الأستاذ عبد الله بوقس
- ١٠ - الفقه الاسلامي آفاقه وتطوره ----- الدكتور عباس حسن محمد
- ١١ - لمحات نفسية في القرآن الكريم ----- د. عبد الحميد محمد الهاشمي
- ١٢ - السنة في مواجهة الأباطيل ----- الأستاذ محمد طاهر حكيم
- ١٣ - مولود على الفطرة ----- الأستاذ حسين أحمد حسون
- ١٤ - دور المسجد في الاسلام ----- الأستاذ محمد علي مختار
- ١٥ - تاريخ القرآن الكريم ----- الدكتور محمد سالم محيسن
- ١٦ - البيئة الادارية في الجاهلية وصدر الاسلام ----- الأستاذ محمد محمود فرغلي
- ١٧ - حقوق المرأة في الإسلام ----- د. محمد الصادق عفيفي
- ١٨ - القرآن لكريم كتاب أحكمت آياته [١] ----- الأستاذ أحمد محمد جمال
- ١٩ - القراءات أحكامها ومصادرها ----- د. شعبان محمد اسماعيل
- ٢٠ - المعاملات في الشريعة الاسلامية ----- الدكتور عبد الستار السعيد
- ٢١ - الزكاة فلسفتها وأحكامها ----- الدكتور علي محمد العماري
- ٢٢ - حقيقة الانسان بين القرآن وتصور العلوم ----- الدكتور أبو اليزيد العجمي
- ٢٣ - الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا ----- الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
- ٢٤ - الاستشراق والمستشرقون وجهة نظر ----- الدكتور عدنان محمد وزان
- ٢٥ - الإسلام والحركات الهدامة ----- معالي عبد الحميد حمودة
- ٢٦ - تربية النشء في ظل الاسلام ----- الدكتور محمد محمود عمارة
- ٢٧ - مفهوم ومنهج الاقتصاد الاسلامي ----- د. محمد شوقي الفنجري
- ٢٨ - وحي الله ----- د. حسن ضياء الدين عتر
- ٢٩ - حقوق الانسان وواجباته في القرآن ----- حسن أحمد عبد الرحمن عابدين
- ٣٠ - المنهج الإسلامي في تعليم العلوم الطبيعية ----- الأستاذ محمد عمر القصار

- ٣١- القرآن كتاب أحكمت آياته [٢] ----- الأستاذ أحمد محمد جمال
- ٣٢- الدعوة في الاسلام عقيدة ومنهج ----- الدكتور السيد رزق الطويل
- ٣٣- الاعلام في المجتمع الاسلامي ----- الأستاذ حامد عبد الواحد
- ٣٤- الالتزام الديني منهج وسط ----- عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني
- ٣٥- التربية النفسية في المنهج الاسلامي ----- الدكتور حسن الشرقاوي
- ٣٦- الاسلام والعلاقات الدولية ----- د. محمد الصادق عفيفي
- ٣٧- العسكرية الاسلامية ونهضتنا الحضارية ----- اللواء الركن محمد جمال الدين محفوظ
- ٣٨- معاني الأخوة في الإسلام ومقاصدها ----- الدكتور محمود محمد بابلي
- ٣٩- النهج الحديث في مختصر علوم الحديث ----- الدكتور علي محمد نصر
- ٤٠- من التراث الاقتصادي للمسلمين ----- د. محمد رفعت العوضي
- ٤١- المفاهيم الاقتصادية في الاسلام ----- د. عبد العليم عبد الرحمن خضر
- ٤٢- الأقليات المسلمة في أفريقيا ----- الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
- ٤٣- الأقليات المسلمة في أوروبا ----- الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
- ٤٤- الأقليات المسلمة في الأمريكتين ----- الأستاذ سيد عبد المجيد بكر
- ٤٥- الطريق إلى النصر ----- الأستاذ محمد عبد الله فودة
- ٤٦- الاسلام دعوة حق ----- الدكتور السيد رزق الطويل
- ٤٧- الاسلام والنظر في آيات الله الكونية ----- د. محمد عبد الله الشرقاوي
- ٤٨- دحض مفتريات ----- د. البدر اوي عبد الوهاب زهران
- ٤٩- المجاهدون في فطان ----- الأستاذ محمد ضياء شهاب
- ٥٠- معجزة خلق الانسان ----- د. نبيله عبد الرحمن عثمان
- ٥١- مفهوم القيادة في إطار العقيدة الاسلامية ----- د. سيد عبد الحميد مرسي
- ٥٢- ما يختلف فيه الاسلام عن الفكر الغربي والماركسي ----- الأستاذ أنور الجندي
- ٥٣- الشورى سلوك والتزام ----- لدكتور محمود محمد بابلي
- ٥٤- الصبر في ضوء الكتاب والسنة ----- أسماء عمر فدعق
- ٥٥- مدخل إلى تحصين الأمة ----- الدكتور أحمد محمد الخراط
- ٥٦- القرآن كتاب أحكمت آياته [٣] ----- الأستاذ أحمد محمد جمال
- ٥٧- كيف تكون خطيباً ----- الشيخ عبد الرحمن خلف
- ٥٨- الزواج بغير المسلمين ----- الشيخ حسن خالد
- ٥٩- نظرات في قصص القرآن ----- محمد قطب عبد العال
- ٦٠- اللسان العربي والاسلامي معاً في مواجهة التحديات ----- الدكتور السيد رزق الطويل

- ٦١- بين علم آدم والعلم الحديث----- الأستاذ محمد شهاب الدين الندوي
- ٦٢- المجتمع الاسلامي وحقوق الانسان----- د. محمد الصادق عفيفي
- ٦٣- من التراث الاقتصادي للمسلمين [٢]----- الدكتور رفعت العوضي
- ٦٤- تصحيح مفاهيم حول التوكل والجهاد----- الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة
- ٦٥- لماذا وكيف أسلمت [١]----- الشهيد أحمد سامي عبد الله
- ٦٦- أصلح الأديان عقيدة وشريعة----- الأستاذ عبد الغفور عطار
- ٦٧- العدل والتسامح الاسلامي----- الأستاذ أحمد المخزنجي
- ٦٨- القرآن كتاب أحكمت آياته [٤]----- الأستاذ أحمد محمد جمال
- ٦٩- الحريات والحقوق الاسلامية----- محمد رجاء حنفي عبد المتجلي
- ٧٠- الانسان الروح والعقل والنفس----- د. نبيه عبد الرحمن عثمان
- ٧١- كتاب موقف الجمهوريين من السنة النبوية----- الدكتور شوقي بشير
- ٧٢- الاسلام وغزو الفضاء----- الشيخ محمد سويد
- ٧٣- تأملات قرآنية----- الدكتورة عصمة الدين كركر
- ٧٤- الماسونية سرطان الأمم----- الأستاذ أبو اسلام أحمد عبد الله
- ٧٥- المرأة بين الجاهلية والاسلام----- الأستاذ سعد صادق محمد
- ٧٦- استخلاف آدم عليه السلام----- الدكتور علي محمد نصر
- ٧٧- نظرات في قصص القرآن [٢]----- محمد قطب عبد العال
- ٧٨- لماذا وكيف أسلمت [٢]----- الشهيد أحمد سامي عبد الله
- ٧٩- كيف ندرّس القرآن لأبنائنا----- الأستاذ سراج محمد وزان
- ٨٠- الدعوة والدعاة .. مسؤولية وتاريخ----- الشيخ أبو الحسن الندوي
- ٨١- كيف بدأ الخلق----- الأستاذ عيسى العرباوي
- ٨٢- خطوات على طريق الدعوة [الجزء الأول]----- الأستاذ أحمد محمد جمال
- ٨٣- المرأة المسلمة بين نظرتين----- الأستاذ صالح محمد جمال
- ٨٤- المبادئ الاجتماعية في الاسلام----- محمد رجاء حنفي عبد المتجلي
- ٨٥- التآمر الصهيوني الصليبي على الاسلام----- د. ابراهيم حمدان علي
- ٨٦- الحقوق المتقابلة----- د. عبد الله محمد سعيد
- ٨٧- من حديث القرآن على الانسان----- د. علي محمد حسن العماري
- ٨٨- نور من القرآن في طريق الدعوة والدعاة----- محمد الحسين أبو سم
- ٨٩- أسلوب جديد في حرب الاسلام----- جمعان عايض الزهراني
- ٩٠- القضاء في الاسلام----- سليمان محمد العيضي

- ٩١ - دولة الباطل في فلسطين ----- الشيخ القاضي محمد سويد
- ٩٢ - المنظور الاسلامي لمشكلة الغذاء وتحديد النسل ----- د. حلمي عبد المنعم جابر
- ٩٣ - التهجير الصيني في تركستان الشرقية ----- رحمة الله رحمتي
- ٩٤ - الفطرة وقيمة العمل في الاسلام ----- اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي
- ٩٥ - أوصيكم بالشباب خيراً ----- الأستاذ أحمد محمد جمال
- ٩٦ - المسلمون في دوائر النسيان ----- أسماء أبو بكر محمد
- ٩٧ - من خصائص الاعلام الاسلامي ----- محمد خير رمضان يوسف
- ٩٨ - الحرية الاقتصادية في الاسلام ----- د. محمود محمد بابلي
- ٩٩ - من جماليات التصوير في القرآن الكريم ----- الأستاذ محمد قطب عبد العال
- ١٠٠ - مواقف من سيرة الرسول ----- الأستاذ محمد الأمين
- ١٠١ - اللسان العربي بين الانحسار والانتشار ----- الأستاذ محمد حسنين خلاف
- ١٠٢ - اخطار حول الاسلام ----- الأستاذ هاشم عقيل عزوز
- ١٠٣ - صلاة الجماعة ----- د. عبد الله محمد سعيد
- ١٠٤ - المستشرقون والقرآن ----- د. اسماعيل سالم عبد العال
- ١٠٥ - مستقبل الاسلام بعد سقوط الشيوعية ----- الأستاذ أنور الجندي
- ١٠٦ - الاقتصاد الاسلامي هو البديل ----- د. شوقي أحمد دنيا
- ١٠٧ - توجيه وارشاد الشباب المسلم نحو قضاء وقت الفراغ ----- عبد المجيد أحمد منصور
- ١٠٨ - المخدرات مضارها على الدين والدنيا ----- الدكتور ياسين الخطيب
- ١٠٩ - في ظلال سيرة الرسول ﷺ ----- الأستاذ أحمد المخزنجي
- ١١٠ - أهمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ----- محمود محمد كمال عبد المطلب
- ١١١ - زينة المرأة بين الاباحة والتحريم ----- د. حياة محمد علي عثمان خفاجي
- ١١٢ - التربية الاسلامية كيف نرغبها لأبنائنا ----- د. سراج محمد عبد العزيز وزان
- ١١٣ - النموذج العصري للجهاد الأفغاني ----- عبد رب الرسول سياف
- ١١٤ - المسلمون حديث ذو شجون ----- الأستاذ أحمد محمد جمال
- ١١٥ - الترف وأثره في المجتمع من خلال القرآن الكريم ----- ناصر عبد الله العمار
- ١١٦ - المسلمون في بورما .. التاريخ والتحديات ----- نور الاسلام بن جعفر علي آل فايز
- ١١٧ - آثار التبشير والاستشراق على الشباب المسلم ----- د. جابر المتولي تميمية
- ١١٨ - اللباس في الاسلام ----- أحمد بن محمد المهدي
- ١١٩ - أسس النظام المالي في الاسلام ----- الأستاذ محمد أبو الليث
- ١٢٠ - المستشرقون والقرآن [٢] ----- د. اسماعيل سالم عبد العال

- ١٢١- الاسلام هو الحل ----- القاضي الشيخ محمد سويد
- ١٢٢- نظرات في قصص القرآن ----- الأستاذ محمد قطب عبد العال
- ١٢٣- من حصاد الفكر الاسلامي ----- د. محمد محي الدين سالم
- ١٢٤- خواطر اسلامية ----- الأستاذ ساري محمد الزهراني
- ١٢٥- الاسلام ومكافحة المخدرات ----- الأستاذ اسماعيل عبد الفتاح عبد الكافي
- ١٢٦- دروس تربوية نبوية ----- الأستاذ صالح أبو عراد الشهري
- ١٢٧- الشباب المسلم بين تجربة الماضي وآفاق المستقبل ----- د. عبد الحليم عويس
- ١٢٨- من سمات الأدب الإسلامي ----- د. مصطفى عبد الواحد
- ١٢٩- خطوات على طريق الدعوة [الجزء الأول] ----- الأستاذ أحمد محمد جمال
- ١٣٠- خطوات على طريق الدعوة [الجزء الثاني] ----- الأستاذ أحمد محمد جمال
- ١٣١- المسجد البابري قضية لا تنسى ----- عبد الباسط عز الدين
- ١٣٢- التدريس في مدرسة النبوة ----- د. سراج عبد العزيز الوزان
- ١٣٣- الإعلام الإسلامي ووسائل الإتصال الحديثة ----- الأستاذ ابراهيم إسماعيل
- ١٣٤- تسخير العلم والعمل لمجد الإسلام ----- د. حسن محمد باجودة
- ١٣٥- منهاج الداعية ----- الأستاذ أحمد أبو زيد
- ١٣٦- في جنوب الصين ----- الشيخ محمد بن ناصر العبودي
- ١٣٧- التنمية والبيئة دراسة مقارنة ----- د. شوقي أحمد دنيا

طبع بمطابع رابطة العالم الاسلامي في مكة المكرمة

هذا الكتاب

هذا الكتاب إضافة
جديدة للمكتبة الإسلامية
وهي إضافة مطلوبة لأن
تطبيق الشريعة الإسلامية
مطلب للمسلمين يطبقونها
في مجتمعاتهم وبلدانهم
ويتمسكون بها كميادى
وأخلاق وسلوك وتعامل مع
غيرهم من سكان هذه
الأرض . وبالتالي فإن هذا
الكتاب بمفهومه الهام
ضرورة لا بد من التذكير بها
بين فترة وأخرى مع تجديد
المعلومات والتزام الطرح
المشوق الجيد الواضح ..

والمؤلف الفاضل نحى
هذا المنحى فاختار لمؤلفه
هذا العنوان الجذاب
(شريعة العدل والفضل) ..
وهي بالحق والحق أقول
شريعة العدل والفضل وهي
مكارم الأخلاق كلها وقد
بعث النبي المصطفى
صلوات الله وسلامه عليه
ليتمم مكارم الأخلاق
وأشهد أنه فعل ..

محمد محمود حافظ